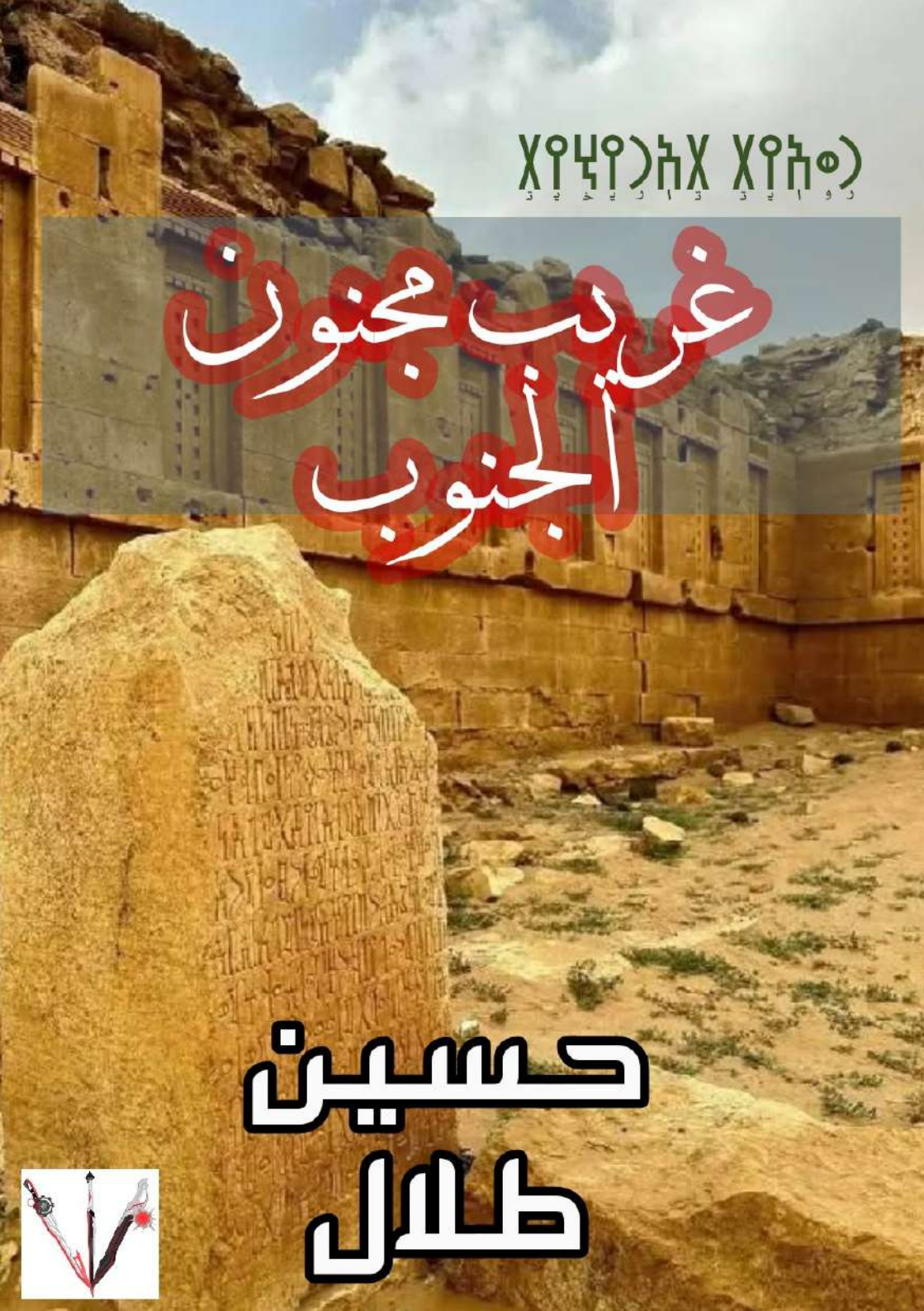
غريب مجنون الجنوب
حسين طلال

# غريب مجنون الجنوب

حسين طلال

2024م

| | |
|---|---|
| عنوان الكتاب | غريب مجنون الجنوب |
| تأليف | حسين طلال |
| تاريخ | 2024م |
| التصنيف | رواية خيالية تاريخية |
| عدد الكلمات | اثنان و عشرون ألف كلمة |
| تحرير و تدقيق و إخراج و تصميم | حسين طلال |
| تواصل مع الكاتب | |
| جوال | 00967773314203 |
| بريد اليكتروني | Husaintalal1990@gmail.com |
| فيسبوك | https://www.facebook.com/kindo.valderian |

**رقم الإيداع في المكتبة الوطنية و الهيئة العامة للكتاب بمحافظة عدن**

**1482 / 2025م**



***التزام أدبي و مهني و أخلاقي:***

***إن كاتب هذا الكتاب، يسمح بتحميل و نشر و طباعة الكتاب للاستخدام الشخصي، غير أنه لمن قام بتحميل ملف هذا الكتاب أو حصل عليه، فإنه يلتزم التزامًا أخلاقيًا و مهنيًا و أدبيًا بالتواصل مع الكاتب عبر كافة قنوات التواصل المتاحة للحصول على إذن شخصي مكتوب منه***

إلى كل من ظن كل الناس مجانين و هو العاقل الوحيد، أو اعتقد أنه المجنون الوحيد و جميع الناس هم العاقلون، إياك و الوحشة

إلى كل من ظن أن النجاة في تغليب الهوى و العصبية و العنصرية، لن تخرج نفسك من الحفرة بنفسك

أقلام العرب مثل أرواحهم، ما زالت تائهة، ما زالت ضائعة

"لا تفكر فيما تركته وراءك، فكل
شيء مسجل في روح العالم و
سيظل هناك للأبد"

باولو كويلو

الكيميائي

# 1.خيال

أدور في دوامة

في زوبعة

في عزلة احْتَزْتُها

و في عزلة بين الناس أُرْغِمْتُها

ما فادني البِر الذي صببته صباً على رأس أبي...

لقد رماني في أسفل سافلين، و كأني هشيم حطبٍ أو صخرةٍ أُلْقِيَتْ في وادٍ سحيق، لم يسمع جبة ارتطامي بالأرض، أو سمعها و نأى عنها.

أما الآن.....

قد أتى من السنين مذ سمعتُ أنباء موته أزيد من عامين، حز في نفسي، كيف أسترد حقي من ميت؟ كيف أشفي نار صدري بعد أن غَشِيَتِ الدمنة تربته؟ فما أنا فاعل؟ فكيف بي حيًّا أهنأ بنومة؟

و أنا على هذا الرحيل كل يوم، أطلع إلى المدينة و الحَضر، أطلب الزاد و السقيا و رزقاً يسيراً من الدريهمات، أسمع بين فينة و فينة ما يتناقله الناس على ألسنهم؛ منهم من يذكر اضطراب الكهنة و العرافين، و منهم من يذكر عن مجنون الحجاز و ما بها من فتن، و خلال ذلك ترجمني نظرات العوام في السوق فوق الأعناق، ترجمني نظراتهم لأنهم يخشونني و يرجون بقائي و رضائي، حاضرة عدن هو اسم هذه المدينة، بعد أن زَهِدَتْ عنها العجم من طمعٍ، آلت إليها أطماع رعاع العرب، لكن ما ظل ذلك لزمن إذ أَنِفَ السَّرَقُ و النَّهَّابَة عن

القدوم إليها من خشيتي، حتى إذا مشيتُ في سوقها انزاح الناس عني في صفين و سموها باسمي حاضرة شهاب.

فمن الناس من يتعجب منظري، فأما الذين لم يألفوا خِلْقَتي، فكان لمشيي مستور ما بين عيني إلى أسفل حانقتي، تضيء عيناي الظلمة إذا ما رآها أحد، تحت شعري الأسود، في هيئة لم يعهدها عرب الجنوب، يُهمس سؤالٌ عن اسمي، فَيَرُدُّ الهمس فيما بينهم: "هذا شهاب ابن الأسود الرازي"

غير أن من دنا بدناءته بِرَكَ الضفادع، فقد ينعتني: "هذا الرازي ابن ذات خصر"

هذا لمن عَرَفَني، من عَرَفَ والدتي، والدتي التي هي أول من آذاني أبي بسببها.

أعود من أسواق المدينة محملاً بما كُتِبَ لي، إلى الدار التي لا يعرف مكانها أحد من الإنس و ربما من الجن، سواي و والداي، أدخل على العجوز الخرفة فيكون أول ما تستقبلني به: "ألا تميط اللثام؟ ألا تزيل الوشاح؟" ثم تنظر بعيداً في ركن من أركان البيت، لربما شيطانها يحدثها، فما أشد ما تعطل من عقلها حين بلغها موت ذا الشيبة الأسود الرازي.

و ما بي طاقة لإجابتها، أضع لها طعامها و شرابها ثم أتولى لبعض شأني، ثم ارتمي نائماً إلى يوم غد.

سئمت.....

أأشرب السم؟ أم أهوي من جرف؟ أم أترك رعاع الخلق يقتلونني؟ أم السباع و وحوش البرية تأكلني؟

ما عدت أطيق وجوه البشر.....و لا حتى التي أدعوها أمي.....

و بينما أنا يوم في سوق المدينة أبتاع و أشتري بعد الزوال، إذ بمنادٍ: "أيكم يدلني على ابن الأسود الرازي؟"

فسكت القوم و طفقوا ينظرون إلي، فعرف المنادي أنني من يريد، فسألتُه: "من السائل؟"

فقال: "أنا عمك كيان، أتيت من نجران أريد رؤيتك"

فقلت: "إن الأسود الرازي لا أخ له"

فقال: "بل إنه أخي و أنا عمك"

قلت: "فما برهانك؟"

قال: "أوما سمعت بكيان؟ أشعر شعراء الجنوب؟ و إني أشعر فأقول، قل هل....."

فأطبقت يدي على عنقه، و حملته، و ألقيته بعيدًا ستة أذرع حتى سقط على جرارٍ من فخار ما قام بعدها، فانزوى الناس مبتعدين عني، إذ يعلمون أني لا أطيق الشعر، و يدي على سيفي جاهزة لمن ينطق شعراً فأُبكِي عليه أهله.

و حيث خرج صاحب الجرار و رأى ما رأى، هوى على ركبتيه عندي رجلي "العفو و المغفرة يا شهاب!" حينها أعرضت و مضيت في طريقي.

و قبل أن أدخل فم الوادي السحيق المؤدي إلى ساحل عدن حيث دار الأسود، إذ برجلٍ ضخم الجثة عريض المنكبين جالس على صخرة، و ما أن رآني حتى تبسم: "أكنتَ قاتلاً عمك يا شهاب؟"

"إن الأسود لا أخ له" رددت.

"قد رأيت، و فهمت، إن أباك لم يخبرك"

"و ما شأنك بالأسود؟"

"إن أباك لم يخبرك أن له أخاً، و لك أخوة"

"و ما شأني بهم؟"

"اييه.....قد صدق ما تناقله الناس عنك، ما من رجل بين عرب جنوب الجزيرة أقوى يداً و لا أسرع رِجلاً و لا أحكم قبضةً منك، و قد عَرَفْتُ أنك أَنْزَلْتَ رعباً بين سكان المدينة فما عاد بينهم من أحدٍ يستشهد حتى ببيت من الشِعر"

"قد أكثرتَ الكلام أيها الكهل، و إني لا أقتلُ النساء و الصبيان و العجزة، فَعُدْ من حيث أتيت أتجاوز عنك"

"إني سائلك، هل ترك لك الأسود من مالٍ أو كنز؟"

"ما ترك الأسود إلا حسرةً و غصة"

"اصدقني، فإن أباك كان ذا مال لا يخشى من بعده فقراً"

"ما ترك لنا شيئاً"

".....إن أباك لم يُعَلِّمْ أخوتك الكذب، و ما كان ليعلمك إياه.....امضِ إلى شأنك يا ابن أخ"

حَمَلْتُ متاعي، و مضيت لا ألتفت، ثم إنه ناداني من خلفي: "أي ابن أخ، إن لكَ حقاً علينا، فانظر ما شئتَ من طلبٍ آتيك به، تَمَنَّ"

وقفتُ مكاني، فكرت، إني لم أكن أبغي شيئاً من متاع الدنيا الزائل، فلو أردتُ المال لأخذته ممن أردت و لا أبالي، و لو أردت جاهاً لمَلَّكْتُ نفسي على عرب الجنوب قاطبة، و لكن...

اِلْتَفَتُّ إليه: "أتعرف أين دُفِنَ الأسود الرازي؟"

"بل أنا من دَفَنَهُ بيدي" أجابني.

"فأنبئني بمكانه"

"إني أنبئك بمكانه، غير أن لي شرطاً"

"و ما شرطك؟"

"أن تصارعني، فإن صرعتني و غلبتني، أخبرتك"

"أي غريب، لا تُحَمِّلْني دمك و لا أحاديث أوليائك"

"قلتَ أن الأسود لا أخ له، و الصواب أن الأسود لا قبيلة له، فإن قتلتني لم يدرِ بي أحد في أي وادٍ هلكت"

رفعتُ رأسي للسماء، و كأني أرجو جواباً منها، لكني كنتُ قد ضقت ذرعاً من هذا الأَفِك، أصرعه و انتهي من أمره، ثم إن أخبرني بقبر الأسود، فعلت ما كان يدور بخلدي منذ زمن.

"ليكن إذًا" أجبته و أنا أطرح متاعي.

ثم إنه قام من الصخرة التي كان جالسًا عليها و خلع رداءه، فما رأيتُ رجلًا أضخم منه جثة، ثم قال: "أي ابن أخ، إن أباك كذلك علمني القتال و السيف و كل فنه، و أظنه فعل كذلك معك، فهلم نرى من منا أحسن التلقي"

"ما همني إن كنتَ حقاً أخاً للأسود و لا لو كان له أبناءٌ غيري"

"ما أنت صانع بقبر الأسود؟"

"سأنبش قبره، و انتشل جثته، ثم سأصلبه على باب صنعاء، و أنشر رعباً بين بني البشر: هذا جزاء من أراد بأهله سوءً"

رأيتُ التمعر في وجهه، و لكني لم أشأ أن أمهله فانقضضتُ عليه انقضاض الوحوش على فرائسها، و ألقمته لكمةً إلى جنبه، و لكن.....و كأني ألكم جلموداً، فَهَوى عليَّ بقبضته، فأحسست الدنيا تدور بي، ما تلقيت قبضة أصلب و لا أقسى من هذه.

و استمررنا كرةً بكرةً، أضربه و يضربني، ثم نال مني التعب ما نال، و أتاني منه من العذاب و الألم حتى ما عدتُ أحس ببدني، ثم أمسكني من رأسي و قال: "إني لأشعر شعراء الجنوب، و إني كذلك لأقوى رجالها، أوحسبت أني آتٍ إليك قبل أن أعرف مقدار قوتك؟ فقد رأيتها، و لكني عرفتُ أنك ما بلغتَ ما أنا عليه"

ثم غاصت ركبته في معدتي، فخارت قواي و ما قدرت على القيام، فنزع اللثام عن وجهي، فرأى ما كنت أخفيه عن بني البشر، فتبسم ضاحكاً: "فهمت، ألهذا تريد قبر الأسود؟"

صمت الرجل هنيهة، و أغمض عينيه لبرهة، ثم قال: "إن الشرط أنك إن صرعتني قلتُ لك مكان القبر، و لأني عمك حُقَّ لي تأديبك و لو مرة، إن شئت، فاذهب فَسَلْ إخوتك، فلربما دَلُّوك.....أما الآن"

ثم حملني الرجل الذي يدعي أنه عمي كالخرقة البالية، و سار بي إلى حافة الجرف الهاري، نظرتُ إلى قاع الوادي، و أبعدتُ من رأسي وسوسة أن لا انسان سينجو إن وقع من هنا...

"ويلٌ للخائبين"

و ثم...

ألقى بي....

# 2.قدر

والدي يُدعى الأسود الرازي، و قد يُدعى الأسود ابن الرازي، أصله من شرق الجزيرة جهة عُمان، كان لا يقبل أن يُذكر له أحد ذلك الأمر، و لَمّا سَأَلْتُه من أي العرب نحن، قال نحن ممن نجا من عَادْ إِرَمْ في الأحقاف.

كان أول حياته قاطع طريق، يصحب نفرًا يتعيشون من قطع القوافل، و ظلوا زمنًا لا يقدر عليهم أحدٌ من شجعان و فرسان العرب، و مرةً قبضوا على قافلةٍ آتيةً من نجران في طريقها إلى حضرموت، فغنموا ما عليها، و قتلوا رجالها، و سَبَوْا نساءها، و كان مما جاء من نصيب الأسود، امرأة تُدعى ذات بعدان، اسمها على اسم ربةٍ كانت تعبدها العرب في شمال اليمن، كذلك كانت تعرف بماجنة بني سجح، لم أسأل أبي و أمي عن منازل أولئك القوم، و لكن عَرَفْتُ أن أمي كانت تدير كؤوس الشراب في نواديهم.

عندما رأى الأسود ذات بعدان تُقَدَّمُ إليه كمائدة الأعراس، وقع في نفسه حبها و شغف قلبه بها، و لشدة ما أحبها، فر بها بعيدًا من قومه، و اتخذ سكنًا في ساحلٍ يقال له عدن، و صنع لنا بيتًا مُثْقَنًا من الحجارة، و أقسم عليها لتتركن ما كانت تعمله في أندية أوباش البشر و ليتركن هو ما عليه من التقطع و السلب، و ليأتينها بكل ما تطلب، ليعيشا في هناء.

عامًا خلى بعد إنجابي، استودعني الأسود و أمي لدى شيخٍ جليلٍ شريفٍ من البلدة القريبة و سافر لشأنٍ قال إنه لِفَضّ أواصر ما كان عليه من قطع السبيل مع قومه.

ثم و بعد أن أتى العام الخامس من حياتي المبكرة، رجع الأسود، محملاً بما كُتِبَ له من رزق، ليعيش معنا، و تبدأ فترةً من حياتي هي المثلى.

لم يترك الأسود شيئاً لم يعلمني إياه، كان يلقي بي بين موج البحر حتى أصبحتُ أسبح أفضل من الحيتان، و أَقْرَأَني قراطيس الأولين من رومٍ و فرس و قديم علوم العرب و العجم و أنهلني من معارفها حتى ما فاتني منها شيء و أضحيتُ أُفتي في كل عُضال، و شد على يدي السيف و الترس و القوس و الرمح فأمسيت ليس من فتيان العرب أشد مني ساعداً.

و كان مما حفظته عنه مقالة "لا ندري من أين أتينا، لكنا بأيدينا أين نذهب" و فسرها لي بأن لا حياة بلا معنى، و ما من دابة تدب الأرض أو طائرٍ يطير في السماء إلا وُلِدَ و خُلِقَ لسبب و لشأن، فلا يجوز قَتْلُ فأرةٍ بلا سبب.

و كانت له تجارة، في كل عام يسافر شهراً و يعود شهراً و معه ما يكفينا إلى العام، غير أنه عارض أخذي معه أيما معارضة و لم أغضب، إذ كنت في بحبوحةٍ من العيش راضيًا بذي الحياة.

و على هذا، عامٌ يجر عاماً، يسافر و يرجع، حتى بلغت العام العشرين من عمري.....حين وقعت الواقعة....

ما أظن أن والداً مثل الأسود أو والدةً مثل ذات بعدان قد سمعا بولد أكثر مني برًّا، و لا أسرع طاعةً، إذ كنت لا أعصي لهما أمراً و لا يهون عندي لهما خاطر، فكافآنني بغير ما جازيتهما.

في إحدى رحلات الأسود، تَكَهَّنَت ذات بعدان و تَعَلَّمَتْ العِرافة و السِحْر، و شَغَفَتْ بذلك، لم أملك منعها، إذ لم يضر ذلك أحدًا و حَسِبْتُها اتَّخَذَتْ من لدن ذلك لهوًا، و لما عاد الأسود، ثارت ثائرته، و ظل مغاضباً لها أياماً، و أقسم عليها لتتركن الكهانة و السِحْر فأَبَتْ، و كنتُ قد اتخذتُ صيد البحر معاشاً، و بينما أنا وسط شغلي، إذ سمعتُ صوت ذات بعدان تستجدي الغوث، فأَسْرَعْتُ إلى الدار، فإذا هما يختصمان و يتعاركان، و أَسْرَعَتْ أمي خلفي تتقي منه.....

فوقف هو و صرخ: "ألا هل من امرأة يطلبها زوجها للسفر و تأبى لها من حق؟!"

فردت: "قد خيرتك، و أنتَ اخترتَ الأبق كالعبد الفأر!"

عَمِيَ في ساعتها...

و غَشِيَ الغضب بصيرته...

و كان على يمينه قِدْرٌ منصوبةٌ على نارٍ بها ماءٌ يغلي....

فألقاها يريد المرأة، و ما أصابت إلا شدقي و عنقي...

ألم شديد.....

ألم شديد أنزلني أرضاً و ظللت أتلوى كالشاة بعد ذبحها.....

و زَمَّلَتني والدتي بما كان عليها، و صَبَّتْ ما لَقِيَتْ من بارد ماء و هي تصيح.....

و كان أبي يرقب هذا كله، حتى صَرَخَتْ به ذات بعدان: "اخرج يا أيها الشيطان اللعين! اخرج!"

لم أرَ النظرة على وجه الأسود، حتى اليوم و أنا أفكر كيف كان وجهه يوم فعل فعلته، خرج و لم أره بعد ذلك.....

لازَمْتُ فراشي شهراً، بل مِتُّ شهراً، شهر من العذاب لا أقوى على أكلٍ أو شربٍ أو قضاء حاجة....

ثم بَرِأْت.....

لكن قلبي لم يبرأ، كل حركة يتحرك بها فاهي تذكرني بذلك اليوم، و كل التفاتة التفتها تنغر في صدري ما حدث ذلك النهار...

اتخذتُ وشاحاً أتلثم به و أخفي ما بقي من وجهي أمام الناس، و لولا معرفتهم بي و بمن أكون لاتخذوني سخريًا...

مضى العام ثم العام، كانت ذات بعدان بعد أن بَرِأْتُ قد ذهب عقلها، و غاب حسها، و أجهز على ما بقي من لبابة مخها خبر موت الأسود، حين نَدَبَتْهُ شهوراً، و عرف الناس من كانت، فأطلقوا عليها اسم ذات خصر، ثم التصق الاسم بي....

أما أنا.....فلم يدرِ أحد من بني البشر كم تراكم غضبي "آلأسود ينجو بفعلته؟! بعد أن تركني بوجهٍ أبشع من الوحوش؟! بعد أن تركني أتجرع صبابة أعين الناس؟! بعد أن تركني و أمي المجنونة الخرفة أرعاها كالأنعام بدل أن أطلع و يكون لي شأن مثل بقية فتيان العرب؟! بعد أن سمح لرعاع البشر أن يذكروني بسوءة أمي؟!"

كلا.....

ما كنتُ تاركه يرقد هنيئاً ساكناً في قبره، فأقسمتُ على نفسي لئن عرفتُ مكان دفنه، لأستخرجنه، و لأعلقنه على باب كبرى مدن الحضر، ليراه القاصي و الداني، و ليطير نبأه بين العرب و العجم، لا يجرؤ باغٍ ممن يدعي رجولة أن يسيء لأهله.....

و ها أنا.....ملقًى على كثيبٍ أسفل الوادي السحيق، تمنعني ساقي من أن أقوم، فتوسدتُ الأرض أناظر السماء الزرقاء، و ما أكثر ما كنتُ أناظرها، ما كان لي ما أمتع به بصري إلا إياها، و أحسبني أردت أن أنظر ما خلفها.

حتى حجب بصري عنها رأس انسان يطالعني من أعلى جرف الوادي، فنزل ذلك الانسان رابطاً أحبله إلى جلمودٍ أعلى الوادي و شاداً إياه على بطنه، ثم تراءت لي صورته و هو يقترب، لقد كانت امرأة، حسبتها أمي، ثم رأيتها امرأةً أعجمية لم أرها من قبل.

"شهاب" نادت باسمي حين اقتربَتْ و وقفَتْ فوق رأسي.

"ويحك ما أنتِ؟ أشيطانة نادتها العجوز؟ أم هذا ما يراه الميت؟" أجبتها في ضيق.

"أعرفك يا شهاب، ليس من فتيان العرب أشد منك قوة، تسافر الأخبار في ذكرك إلى بصرى و الفرات"

"و هذا آخر يومٍ ترين فيه هذا الفتى، فإني إن لم أمت من سقطة الوادي، أكلتني السباع و دواب الأرض مساءً، فلا يعود لي قبر و لا يبقَ لي أثر"

ثم أتت ساقي و كَشَّفَتْها: "لن تموت اليوم من هذا يا شهاب" ثم أَخْرَجَتْ قصعةً مما يُملأ بها الماء و قالت: "اشرب"

و صَبَّتْ ما بالقصعة على وجهي و لم أملك أن دخل بعض منه إلى جوفي، فغَشِيتُ الساعة.

ثم أَفَقْتُ على فراشي في داري و تلك المرأة تحدث أمي، فلما رأتني أَفَقْتُ أَقْبَلَتْ: "أنت ما بين خارصة و جائفة، فلا تحرك رجلك"

فسألتها: "ما وراءك يا امرأة؟ و ما أعلمك بمكان داري؟"

فقالت: "رمال هو اسمي، و كنتُ أتبع خطا عمك كيان و لا يشعر بي، حتى أتيتُ و سمعتُ و رأيتُ ما بينكما"

فقلت: "و لمَ؟"

فأجابت: "إن بيني و بينه ثأراً و دماً، و إني أتحين الفرص لآخذ رأسه، غير أن كيان لا يقدر عليه إنسٌ و لا جان، لا في مواجهة و لا غدراً، و أحسبه يعلم أني أتتبعه و لا يبالي، له من خوارق العادات ما لا يأتيه أحد، و قيل أن لا سيف

يقطعه و لا خنجر يطعنه و لا سمٌّ يقتله، حتى سمعتُ عنك، و رأيت بعيني ما أنت عليه، فأنت الأشد و الأقوى بين إخوتك، و إني لأرجو أن تكون أنت من يدق عنق كيان"

نظرتُ، فإذا يمناي و ساقي مربوطتان إلى خشبةٍ تمنعها من الحراك، فقالت رمال لما رأتني أريد القيام: "اجلس، فلم تبرأ"

"أهذا ما حملك على ما فعلتِ؟ أن أقتل كيان في سبيل نعمتك علي؟" سألتها.

"و هل كنت تاركاً إياه إن رأيته؟"

".....سوف أقتل كيان بمشيئتي أنا، لا بمشيئة أحد"

"ليكن، و لكن حتى تعود إليك قوتك، سأعينك حتى تقف على قدميك و أنظر في حاجتك و حاجة أهلك، و بعدها أقول لك ما أريد حقاً"

و هكذا.....مَكَثَتْ هذه الأعجمية المدعوة رمال في بيتنا، تعينني على قضاء حوائجي دون تأخر و لا تلكك و لا تململ، تصنع طعامنا و تسقي لنا، حتى ردت لي عافيتي.

فأتت بعد أن فكت الرباط من ذراعي و ساقي و قالت: "الوعد"

فقلت: "نعم، سَمٌّ طلبك"

"أن تقتل كيان"

"سَمٌّ غيره"

"هو ذاك"

"و ما صنع لكِ كيان حتى تبغين موته؟"

فأشاحت بوجهها و صمتت، ثم أجابت: "لقد قَتَل خلقًا كثيرًا من قومي، عشيرةٌ بأسرها من أهلي، لم يبقِ منها أحد، و لم يفرق بينها من أحد، و لو ترى ما صنع بحاضرة شهاب و بأهلها"

إن الرجال تعرف الرجال عندما تراها أو تسمع عنها، و مما رأيته و سمعته، فإن كيان هذا منطبقٌ ما قالت، فسألتها: "فأين هو؟"

"قد فَقَدْتُ أثره لجمعةٍ خلت من مكوثي عندكم.....غير أني أدلك على من قد يعلم بمكانه"

"و من يكون؟"

"ملك الأقيال"

"و من ملك الأقيال هذا؟"

"أقيالٌ عدة يملك كل واحدٍ منهم مدينة من مدن الجنوب، و هؤلاء الأقيال يدينون لملكهم و يأتمرون بأمره، و قد اتخذ من ناحية سماها الحوطة سكناً و له فيها قصرٌ عبقري الجمال و البهاء، و منه يرسل عيونه و فرسانه، غير أن قصره في ناحية لا يعلمها إلا خواصه"

"و ما لي لم أسمع عنه خبرًا و لا حِسًّا؟"

"هو ذا ما يريده"

"و ملك الأقيال هذا سوف يدلني على مكان كيان حسب قولك، و كيف ألقاه إن كان لا يعلم مكانه أحد؟"

"أنا أدلك، فخذني معك"

غريب مجنون الجنوب - حسين طلال

لم أكن، أنا شهاب، ممن يثق بأحد، و لا أسلم نفسي لأحد، و لكن رمال هذه لم تترك لي مجالاً للنظر في الأمور، فأنا همي الأول أن أعرف مكان قبر الأسود، هذا ما أريده من الدنيا و لا أكثر، و إن كان قتْلُ كيان أو لقاء ذلك الملك يؤتيني ما أريد، فليكن، و الوقت يمضي، و دليلي قد يفوت.

و لما أردت الخروج، تعلقت بي أمي: "أين تذهب و تتركني؟!"

"إليك عني" دفعتها.

"وا كرباه عليك ضاع الأسود ثم تضيع أنت!"

فدنوت منها: "بل أنا ضائع إن مكثتُ عندك ساعة، كان الأسود مصيبًا لما تركك، إني أعلم أنكِ مكثتِ مغاضبة عندما أمركِ بترك نوادي الشراب و الجواري، ثم أصررتِ على كهانتك و عرافتك حتى فُضِحَ أمرك و صار الناس يعيرونني بك، إن ما بك من جنون لأظنه كذباً، فانظري في شأن نفسك، فلا قِبَلَ لي بك بعد اليوم، و لتنسِ أن لك ابناً"

ثم تركتها، و هي تندب: "وا اسوداه إياك و الحجاز! وا شهاباه إياك و الحجاز!" حتى توارى صوتها خلفي أنا و رمال بعد أن رحلنا أخيراً.

على كلام رمال، فالحوطة على مسير يومٍ و ليلة من عدن، أَرْدَفْتُ رمال خلفي على فرسي و ارتحلتُ فجرًا، غير أنه راعني ما رأيت في عدن، رأيتها أنقاضًا تشتعل سعيرًا منكفئة بعضها فوق بعض، حاضرة شهاب التي يقول المسافرون عنها أنها أجمل مدن الجنوب و أطيبها، تمرغت في الطين و الرماد كأنها قريةٌ حطيم، فيما بين سقوطي و يقظتي كأنما يوم و ليلة و كأنما السنين أتت.

قالت رديفتي: "هذا جزءٌ مما يصنعه كيان في أحياء العرب ممن لا يجيبونه إلى مراده، يجعل أعاظم الناس و أصاغرهم سواء في الموت، ويكأن العرب يوشك أن يُفعل بهم جميعًا ما ترى"

فسألتها: "و ما الذي يطلبه؟"

غير أنها لم تجب، و أكملنا سفرنا....دمار تام هو كل ما رأيته في الأحياء و البيوت التي أمر بها، و لم تكن هناك حاجة في سؤالها عمن فعل هذا.

و لم أقف حتى وصلنا الناحية التي أَمَّرَتْ عليها، جَنَّ الليل و انتصف الهلال في كبد السماء و سألتُ رديفتي: "أين قصر ملككم ذاك؟"

نَزَلَتْ هي ثم أجابَتْ: "سيأتي، و لكن إن أمنتني و فَعَلْتَ ما أقول"

"من آكد الأكيد أني لا آمنك يا امرأة"

"افعل ما أقول و لن يقتلك الملك و سيأتي إليك"

"و ما أفعل؟"

"أنزع لثامك و أُقَيِّد به يدك إلى سرج فرسك"

"أهبلتِ؟!"

"لا تخشَ شيئاً، إن لك وعدًا أنه لن يلحق بك أذى، و ما أنا هنا إلا لأني بحاجتك، و ما أنا بتاركة إياك تموت"

قالتها و هي تبتسم و كأننا صبية يلعبون بالعهن، و لكنني لم أكن ممن يخاف الموت و لا ما هو أشد منه، فتركتها تفعل ما قالت. نَزَعَتْ اللثام و رَأَتْ شكل وجهي، لم يتغير وجهها عندما رأته و لم يتمعر، بل ظلت في ابتسامها حتى انتهت من رباط يدي بالسرج.

"قد ترى ملك الأقيال غريباً عجيباً في كلامه و أفعاله، و لكنه ليس بأغرب منك، إنه كَيِّسٌ طيب خَيِّرٌ مثلك، و لكن سايسه و جارِهِ حتى تسمع منه ثم تخبره عن مرادك"

ثم أرسلَتْ بصفعةٍ على مؤخرة فرسي إياها تجري، و أنا عليها، جاعلة إياي أتركها خلفي.

و استمرت الفرس في جريها حتى أتيت على نار، و نزل رجال من الجبل الذي التفت حوله فرسي، و أرسلوا أحبلهم على عنق فرسي حتى أوقفوها، و أرسلوا أحبلاً تقيدني من وسطي.

رفعت رأسي أنظر إليهم، فإذ بهم رجال كريهو المنظر شديدو الهيئة ملثمو الوجوه، نطق أحدهم: "و هذا آخر، أنذبحه هنا أم نعرضه على الملك؟"

فرد آخر: "بل انظر إلى يديه، إنها لعلامة، فلنعرضه على الملك لينظر في شأنه و إلا ذبحناه مثل من سبقوه"

و جروني سحلاً على الرمل حتى أدخلوني القصر في بطن الجبل.

## 3.أبدية

هؤلاء الأوباش....

رعاع الماشية بل هم أدنى منها....

لو شئت لفككتُ وثاقي و نَحَرْتُ أعناقهم كما تُنْحَر الإبل و الشياه.....

و لكن....

غرائب مجنون الحنوب - حسين طلال

تَرَكْتُهُمْ يَجُرُّونني إلى ذلك الملك، حتى أدخلوني إليه، جالسٌ على سريره خلف ستارٍ لا يُرى إلا ظله، ثم رَحَّبَ بصوتٍ لم أسمع أجعد منه قط: "عِمْتَ مساءً يا شهاب بن الأسود الرازي"

تركني جنده معه، و حَلَلْتُ وثاق نفسي و أَعَدْتُ اللثام على عنقي سائلاً إياه: "من أعلمك باسمي؟"

قال: "لي عينٌ خلف كل باب، و أُذُنٌ وراء كل جدار، و درهم داخل كل صرَّة، سلطاني لا حد له في جزيرة العرب، أنا الظل الذي يسير خلف كل ملك، و اليد التي تبطش في كل جيش، و إني أعرفك و أعرف والدتك ذات بعدان و والدك الأسود الرازي، و عمك كيان، و أخوتك الخمسة، و ما وراء ذلك"

فبادرته: "إن كنتَ عليماً خبيراً كما تقول، فأنبئني بمكان دفن الأسود"

"إنسان.....كأي إنسان.....عَجِلٌ مستعجل.....و كذلك أنا مثلك.....إنسان، علمي و خبرتي و سلطاني علم و خبرة و سلطة انسان.....لا يجاوز أحد منا إنسانيته، مهما دنا أو علا"

"ليكن، إن كنت انسانًا كما الناس، ففَرْضٌ عليك أن تأتمر بما يريده كل الناس....عملٌ و ثمن، معروفٌ و أجر، فَسَمِّ ثمنك؟"

"لا تحسبن كل الناس على نفس الفكر يا شهاب، ليس كل البشر يريد ما يريده عادة البشر و عوامهم، أنا و أنت من الخواص، نحن بشر، لكن لسنا كبقية البشر، أنت أعلى.....و أنا.....أعلى"

"أنت أعلى، و لكن مما رأيته، لو كنت أعلى، فَلِمَ لَمْ ينازعك القُرْس على مُلْك اليمن؟ و ما تريد من مثلي أن يصنع لك؟"

"العرب هم من يملكون اليمن يا شهاب، القُرْس يوشك أن يزول سلطانهم حتى من بلاد فارس"

"و ما شأنك أنت؟ ما الذي تريده؟"

"إن اليمن للعرب كالجذع للشجر، من يملك اليمن يملك جزيرة العرب، و من يملك جزيرة العرب يملك على الشام و العراق، و من يملك الشام و العراق و اليمن يوشك أن يملك فارس و الروم، و العرب رغم أن اليمن بيدها فهي لا تدرك ذلك الآن، ربما في زمانٍ قادم، و لكن ليس بعد"

"لم تقل ما تريده"

"قد لقيتُ أباك، قبل ثلاثين سنة، قاطع طريقٍ وضيع، و أنا تاجرٌ على قافلتي، و كان معي كاهنٌ من نجد، فأَخْبَرَهُ أنه إن تَرَكَهُ و لم يسلبه فسيتكهن له، وافقه الرازي، و سمع كهانة الكاهن....يومها....لم أرَ رجلاً يتغير في ساعته مثلما تغير الرازي، و صار له وجهٌ غير الوجه الذي أتانا به"

كُنْتُ...اسمع كلام هذا الملك و لا أبالي به، حتى ذَكَرَ الأسود، لا أعلم لمَ انتفض قلبي ساعتها، أَمِنَ الغيظ؟ أَمِّن غيره؟ لا أعلم، حاولتُ سؤاله دون أن أُظْهِرَ له اكتراثي: "و ما قال الكاهن حتى يقلق و يرتعد الأسود؟"

أجاب الملك: "قال.....إنه يوشك أن يطلع طالعٌ من الحجاز، تأتي العرب له خاضعة، و الروم و الفرس، و الهند و السند، و بنو الأحمر و الأصفر، يخافه أعداؤه، و لا يجرؤ عليه من خالفه، و هو على مخالفيه أشد من النمرود، و من عانده أَكَلَتْ من رأسه الدود"

رأيتُ ظِل الملك يعتدل في جلوسه، ثم أشار إلى الطاقة: "انظر إلى النجم في السماء، ليس سهيلًا و لا الشعرى، هذا النجم تعرفه السحرة و الكهان، و الأحبار

و الرهبان، و هذا النجم لا يخطئ خبره، و كلٌّ يعرفه، و إنه يوشك أن يغلق باب الكهانة على أصحابه، هذه هي الكهانة الأخيرة"

أسررت في نفسي ساعتها: (كان الأسود يكره الكهَّان، و أذكر أنه احْمَرَّ غضباً لما عَلِمَ أن ذات بعدان تَكَهَّنَتْ في غيابه)

ثم أكمل الملك حديثه: "سألني الرازي، و قلت له إنني تاجر أبيع و أبتاع في كل شيء، فقال لي، أنه لو صَدَقَتْ كهانة هذا الكاهن فلن تكون هنالك تجارة و لا قطع طريق و لا حياةٌ إن جاء هذا الطالع و صار ملكاً على العرب على النعت الذي نعته لنا، فسَأَلْتُه ماذا يرى، فقال إن هذا لأضغاث أحلام الكهان، و لكنه أمرٌ وارد الحصول لو تُرِكَ يَحْصُلْ"

"و ما قال؟"

"قال إنه آن الأوان أن نملك نحن على العرب، و سألته كيف، فقال إنه سيأتي برجالٍ أشداء من صلبه، و ينذرهم لربط اليمن تحت جناحهم، فاليمن أعتى على كل آتٍ لها، على أن أُنْفِقَ عليهم و على معيشتهم حتى يشتد عودهم و يقوى عمودهم"

"و الآن تقول لي، أنه تزوج و أنجب في ثلاثين سنةٍ على حس كهانة تكهنها عجوزٌ خرف؟"

"خمس نسوة أتين له بخمسة رجال أشداء"

"اييييهٍ ايه"

"السادسة هي أولاهن، أمك، أنت أكبر أخوتك، و أنت....."

قاطعته: "اعفنِ من هراءك! قل لي أين قبر الأسود؟!"

ثم رأيت ظله يتحرك تجاهي، ثم سَكَتَ هنيهة و كأني به يتنهد، ثم قال: "أتعلم ما قال فيك الأسود عندي؟"

"ما قال؟!" سألته.

"كان يقول لي إنك أعقل أخوتك و أرجحهم و أرزنهم، و خشيتي أن يكون من المخطئين"

"كان مخطئاً في كثير أمور، ما أنا إلا جسمٌ مشوه و روحٌ متكسرة"

"لكن ما أنا أراه هنا، و هو ما لم يخطئ به، أنك مختلف، مختلف عنهم، مختلف لكأني آتمنك على مصير مُلْكي بين يديك، سأحدثك بما أريد يا شهاب، إن كل أخٍ من أخوتك هو قيل لناحيةٍ من نواحي بيوتات العرب اخترتها لتكون حجر انطلاقنا لملك اليمن، لاستيثارها من الفُرْس، و نبني مملكةً نخوف بها الروم و الأحباش و ما وراءهم، الأول يدعى عبدإيل، و هو الأكثر حكمة من بينهم، و يشجب، و هو الأغنى من بينهم، و كهر، و هو الأشد من بينهم، و حزن، و هو الأشجع من بينهم، و ذومقطع و هو....."

"أتخوفني بما لا يخافه الصبيان؟"

"كانوا كلهم لا يقطعون أمرًا دون أن أنظر فيه، غير أنه.....قد وسوس كيان في هؤلاء الأقيال وسوسة الشياطين، و أغرى بهم لينقلبوا علي، و قد بلغني أن أحدهم قد خبأ كنزًا لم يُرَ على وجه الدنيا مثله، ما أريده منك هو ثلاث، أن تنظر في أمرهم و تأمرهم بأن يرجعوا لجادة الطريق و صواب السبيل تحت جناحي، و إلا فلتجعل باطن الأرض أحب إليهم من أعلاها، فلا حاجة لي بهم إن لم يأتمروا بأمري، و لا بوصية الأسود لي، و الثانية أن تسألهم عن مكان كيان، فهم يعلمونه، و هم لا ينبئون أحداً بذلك، فلعلك تجد سبيلاً إلى هذا، فإن وَجَدْتَهُ فاقتله، و الثالثة أن تعود لي بالكنز المدفون ذاك"

آثرت الصمت و أنا استمع طلبه و كأني عسكرٌ من عساكره، و لولا أن في خاطري أمرًا لمزقت ستاره، و لكني أعلم أن في هذا المقام الشدة ليست السبيل و لا الوسيلة لأصل غايتي.

ثم أمر لي بدنانير ذهبية كثيرة، و ملابس جديدة، و درعٍ قويةٍ نظيفة، و فرسٍ شابةٍ سريعة، مما يحتاجه المحارب، ثم قال: "في كل مرةٍ تنهي أمرًا يخص أحد إخوتك، نَحَلْتُكَ و منحتك عطيةً خير من الذهب و الفضة لا يسعك أن ترفضها، اذهب و عثتر معك"

اِلْتَفَتُّ إليه و نَهَرْتُه: "إياك أن تنطق لي اسماً من أسماء أرباب العرب هؤلاء!"

"فما تعبد؟ نحن نعبد عثتر، و نعلمك صلاته إن شئت"

"لا أعبد أحدًا منهم!"

"غريب، المرء لا يسعه إلا أن يعبد شيئاً، كل القوة و الغنى اللذان قد يمتلكهما إنسان، مصيرها الانتهاء، و هو ينتقل من ضعف إلى ضعف، و من فقر إلى فقر، و ما من شيء يغني ذلك الفقر و يؤنس ذلك الضعف، من شيء يحس معه الانسان بالغنى و الأمن، شيء يكون ذا غنى و قوة يركن إليها، و أرباب و آلهة العرب كثيرة، و هنا في اليمن أكثر، فاختر لك أحدها، يهدأ بذلك قلبك و تستنير بصيرتك، ما تقول في ألمقه؟"

"قلت لا أعبد أصنامكم و لا كواكبكم و لا بهائمكم"

ثم غادرتُ غرفة الملك مسرعاً، كنتُ أكره حمل هداياه هذه معي، و لكنها من الضرورة كي استعين بها على بلوغ ما أريد، هؤلاء الأخوة لابد أن أحدهم يعلم بمكان قبر الأسود، فإن دلني عليه كان بها و أَمِنَ شَرِّي، و إن لم يفعل فأفعل به

ما أفعل، و ذلك جدير بأن يدفع كيان لأن يخرج من جحر الضب الذي هو فيه أيًا كان.

على وصف الملك، فأقربهم على بعد سبع ليالٍ من دار الملك قريبًا من بلدٍ يقال لها تمنع، لم انتظر الفجر، بل انطلقتُ من ساعتي، فإن كان الأسود في سبات، فأنا لا أنام حتى يوشك أن أقض مضجعه و يقوم هو من سباته و لا يعود.

## 4.أنغام

سبع ليالٍ من المسير أوصلتني إلى منازل يشجب، نزلتُ قبلها من هذه الفرس الجميلة، التي بادرتني معروفاً بأنها لم تتعب لخمس ليالٍ من المسير، أسميتها سيناء، تيمناً بالأرض المقدسة ذات الطور في مصر، و رأيتُ أن أكافئها بوافر مبهج الثلج و مشبع الزاد و بارد الظل و حالي العسل.

و الذي رفع إلى ذهني هذا الأمر، هو عَرْفُ جَوْذابات شواء اللحوم و طبيخ المرق و عبق فواكه النبيذ و الشراب، يُصَيِّرُ سيول لعاب الصائم نزولاً، ترتفع من السهل الذي يسكنه القوم أخاهم يشجب، و لما دنوت، رأيت القدور تُنْصَب، و اللحوم تُقطع و توضب، و الكؤوس توزع و تشرب، و رأيتُ نساءهم تتمايل و رجالهم تنبطح، ويكأنهم ليسوا برجال أو نساء، بل قصب نخيل يهتز مع ريحٍ عاصف منه ما يسقط و منه ما يهتز.

أهؤلاء الذين يتزعم عليهم أحد أخوتي؟ أحد بني الأسود؟ هؤلاء الشرذمة الذين يطنون كالنحل مع الدف و العود يقارنون بي أنا ابن الرازي؟

أقررتُ في نفسي أن أهدئ من غضبي و أسكن من روعي، فلعل هذا الأخ المفقود أهونهم حالاً.....

و كنتُ مخطئاً.....

رأيتُه في ناديه بين جاريتين تضحكان، تناولانه الشراب، و الثالثة عند قدمه تدلكها، و الرابعة على كتفه تُمَرِّخُها، و الخامسة تدق عوداً، و أخرى تنشد، و أخرى.....كفى!

بكلمةٍ مني التفت إلي، لم ينكر هيأتي، بل أشار إلى جواريه فقمن عنه و جاء إلي: "أ إنك لشهاب؟" سألني.

قلت: "و كيف عرفت؟"

قال: "أنت الوحيد من أخوتي الذي لم أرَ صورته، فمرحباً بك في منازلنا"

و أراد أن يعانق فأوقفته و أبدى هو تفهماً، ثم دعاني لأن أتبعه فمشيت خلفه.

ثم سأل: "ما أتى بك إلى منازلنا يا أخي؟"

لم أجبه من فوري، بل طالعت صورتي أراها في وجهه، أراقب هل أنا أشبه بأبي أم هو، هل كان لوجهي نفس الملامح قبل أن أفقدها؟

ثم لما رآني صامتاً قال: "ربما ما كان لي أن أسأل، فلتمكث الليلة عندنا، و لتأكل من طعامنا و تشرب من شرابنا، و لتُرِحْ فرسك"

قلت: "نعم، لم أُرِحْها من خمس ليالٍ سيرًا، فلو أنكَ نَحَلْتها و أكرمتها"

"نعم"

ثم أمر لي بحجرةٍ و فراشٍ دثير و لحمٍ و فاكهة، ثم قال: "تخير أي من جواريّ شئت تبيتها معكَ الليلة"

"لا حاجة لي بهن"

"إنما أريد أن أكرمك و أحسن ضيافتك، فإن مقامك عزيزٌ لدينا"

"قد كفيتَ و الواجب أديت، و ليس لي حاجة بجارية أو بخادمة"

"أمرك غريب يا أخي، غيرك كان ليسألني هل أزيده ثانية"

"أكنتَ ترضاها لأمك؟"

"ليس الناس سواء يا أخي، أعلم أنك ترى نفسك أعلى من بقية سواد الناس، فكذلك النساء، أمي حرة ابنة حرة فلا أرضاها لها، أما لجواري لا تصلحن إلا للمتعة فلا أرى بأساً"

يممتُ وجهي تلقاء الحجرة التي أمر بها لي، و عندها قال يشجب: "غدًا بعد أن تستعيد قوتك و تستيقظ من هنيء نومك، أسألكَ لِمَ أتيت"

"هو كذلك" أجبته.

لم أنم تلك الليلة، ترددتْ صورة يشجب في بالي، و كيف لهذا الوجه كان أن يكون لي، هل لو كان لي مثل وجهه لأكون ذا شأن في البلدة عدن حاضرة شهاب حيث كنتُ أسكن قريبها؟ ربما إن لم يكن وجهي يبعث الخوف في نفس من يراه فهل لم يكن يدرِ أحد بي و بأمي و لا يعيرني بها؟

تفجر الفجر ثم تنفس الصبح و طلعت الشمس قيد رمح، لم أشعر أن طعاماً قد وُضِعَ داخل الحجرة، فَنِلْتُ منه كفايتي ثم خرجت، و إذ بصاحب شيبة مُنْحَني الظهر كسيح الوجه كليح الجلد على الباب، فقال ما إن رآني: "آلسيد أخو شيخنا؟"

فسألته: "و ما شأنك؟"

فقال: "قد مكثتُ الليلة على بابك خشية أن لا أجدك"

"قل ما عندك"

"إن لشيخنا عليَّ دَيْنٌ كبير، و إني لأرجو أن تكلمه في شأني، فيتجاوز عني أو يحط عني جزءً منه"

"ألا يطعمكم و يسقيكم و يكسيكم شيخكم؟ فما استدانتك منه؟"

"نعم، و لكن كان بيننا مداوٍ فارسي، و كان يداوي مرضانا، و كان شيخنا قد أبعده عن منازلنا، فاتخذَ من حَرَّةٍ بعيدة سكنًا له، و مَرِضَتْ إحدى بناتي و لم أملك ما أحملها عليه إلى المداوي"

"فاستدنتَ من القيل أجر الحمالة و زاد الرجعة، و لكن ذلك كيل يسير، فأي دَينٍ كبير هو؟"

ثم قاطعه مجيء القيل يشجب عينه، و الذي ما إن رآه الرجل حتى انصرف هارباً، و جاء يشجب يسألني عنه فقلت: "إن هذا سألني أن أكلمك أن تحط عنه دَيْنَه"

فرد في أمرٍ غير الذي كلمته: "تعال نصنع ما يصنع الأخوة بعد فَقْدْ، امشِ معي حول منازلنا أريك معايشنا"

و كان له ما أراد، إذ أراني عبيده و جواريه و خدمه و ناسه كلٌّ يسارع إلى خدمة الآخر فيما يحتاجه، و لم أرَ تجاراً أو قوافل فكتمتُ نكراني لذلك في نفسي، و لكنه عرف ما في وجهي فقال: "ليس بيننا تجار و لا دكاكين و لا حوانيت، و كلٌّ منا يعمل خدمةً لجاره و يُعِينُه، و يتكافل بعضنا بعضاً و يشد بعضنا بعضًا كالطوب و اللَّبِن، و لم تعد هناك حاجة لنا إلى الدنانير و الدراهم، إذ ندفعها إلى الرحالة يأتوننا بما نحتاجه من بعيد إن احتجناه، و ليس بيننا

جائعٌ أو عارٍ أو عائلٍ أو شريد، أما الآن يا ابن أبي، أما آن أن تقول لي فيم قدومك إلى منازلنا؟"

و قبل أن أجيبه أتاه أحد غلمانه يقول: "يا شيخنا، قد بعث صاحب قافلة صنعاء بنصيبك من تجارتهم" ثم سلمه صرة بان من صوتها أنها مملوءة ذهباً.

فقال: "اذهب و انظر ما ينقص القوم فابتع لهم منه من بيوتات ذي مقطع، و انظر إلى تاجرنا هناك ما خبره"

"سمعًا و طاعة"

ثم أشار بيده فأَقْبَلَتْ إحدى فتياته بقدحي شراب و ماء، و قال: "شعيرٌ أم ماء؟"، قلت: "بل ماء"

ثم نطقتُ أخيرًا بما أريد: "أتعلم أين دفن الأسود الرازي؟"

"والدنا؟ لمَ؟.....مهلًا!...آلكنز مدفونٌ معه؟"

"تعني كنزًا يبتغيه كيان و الملك؟"

"فمه؟ تقول الأخبار أنه كنزٌ لم يُرَ مثله و لا تضاهيه حتى كنوز و تيجان و أساور كسرى، لم يخطر ببالي أنه مدفونٌ مع والدنا"

"لم أَقُلْ إنه مدفونٌ معه و لا يعنيني كنزكم"

"بل اعقل يا أخي و انظر، إن وضعنا أيدينا على هذا الكنز، فستأتي العرب و العجم إلينا خاضعة"

"و ما شأن هذا بذاك؟"

"افهم يا شهاب! المال هو عِرْقُ الحياة، و لا حياة بلا مال، يولد المرء بالمال و يموت و يدفن بالمال، و بين ذلك و ذاك يمشي و يأكل و يتزوج و ينام بالمال، و لو كان لي أولاد لأسميتهم درهم و دينار"

و أنا اسمع كلامه، راودتني رغبة في طرحه أرضًا، إذ كل نَفِسٍ كان يتنفسه هذا الرجل يثير حفيظتي، خالجني شعورٌ حوله بأنه ليس بمحل ثقة، و شيءٌ ما به يشعرني أنه من الناس الذين لا أطيق منظرهم، ربما شر من الشعراء، و من شر من الشعراء؟ آثرت الهدوء حتى ألقى جواباً مفيدًا منه، ثم قال: "أرأيتَ قصر الملك كم هو بديع؟ إن كان لنا كنز بنينا قصرًا أوسع و أطول من قصره"

ثم رددت: "اسمع، أنا لا ابتغي مالاً و لا ثراءً و لا قصورًا، كل ما أبتغيه أن تدلني على قبر الأسود الرازي إن كنت تعلم مكانه"

"و كم تدفع ثمن هذا الدليل؟"

"ثمن؟"

"نعم، لقد علمني أبي أن لا شيء بلا ثمن حتى الثرى لمن يعرف قيمته"

قلت في نفسي: (و يبدو أنك أسأت تلقي هذا العلم، إذ علمني الأسود ذات الشيء، و لكني فَهِمْتُهُ و وعيته على غير ما فَهِمْتَهُ أنت، فما عناه الأسود هو أن تسدي معروفًا لغيرك لتلقى معروفًا، و لكن أنا مجبر في هذا الوقت بلعب لعبتك) ثم أجبته لطلبه: "ليكن يا يشجب، سمِّ ثمنك، إذ لستَ أول من يريدني أن أكون ساعيه"

فضحك قائلاً: "إن دل هذا على شيء فيدل على أنك مرغوبٌ لدى كل من يراك يا شهاب، و ليس من ألوان التعامل ما هو أفضل من الرهبة و الرغبة، و هو ما أنت عليه مع الناس"

"و كيف تعلم هذا؟"

"إنه مكتوبٌ على جبينك"

تنهدت و فركت ما بين عيني: "قل ما تريد يا يشجب"

تلألأت عينه و هو يقول: "الكنز يعلم مكانه أخونا عبدإيل، إنه قيل ديار عبدإيل، يبعد يومًا و ليلة من هنا جهة المشرق قريبًا من شبوة، إنه لا يحدثني و لا يقابلني، فإن أتيته فاسأله عن مكان الكنز و هل دُفِنَ مع والدنا"

"و البقية يحدثونك و تقابلهم؟"

"بل نرسل الكتب بيننا و نتشارك الأخبار و نستقبل التجار، الآن اترك عنك البقية، و امضِ إلى ديار عبدإيل و اسأله عن الكنز، فإن أتيتني به لترين الجزاء الذي سأجزيك به"

"و لمَ آتيك بالكنز؟ إن دلني عبدإيل على مكان قبر الأسود فلا حاجة لي بالعودة إليك"

"إن عبدإيل مشهورٌ بالكذب، و أنا لم أرَ أين دُفِنَ الأسود، إنما سمعتُ هذا عن عمنا كيان، سَلْ عبدإيل، ثم ارجع إلي فسلني، فإن توافقنا عرفتَ أن المكان حق لا كذب، ثم ألا تريد أن تَصِلَ رَحِمَ أخيك و قد أكرمتُك؟"

يتهم أخاه بالكذب وهو قد كذب أمامي الساعة، لم أملك إلا أن أقول كي أطير من ساعتي، فلم أعد أطيق منظره: ".....ائتنِ بفرسي"

ثم أمر فأُتِيَ بفرسي و متاعي، ثم وضع ألفي دينارٍ في جهازي، آثرت أن أرفضه، فأنا لم أنفق شيئًا مما أعطانيه الملك، و لكني رأيت العناد في عيني يشجب فآثرت أن أجنب نفسي ألمًا في ناصيتي.

قد بدأ سفري و ترحالي يطول، و لكن عليَّ أن أصبر، فليس ما يُرام يؤتى بالتمني.

تركتُ يشجب يلوح بيده لي مودعاً حتى توارى عن ناظري.

و بدأتُ سفرًا إلى ديار جديدة....

## 5.بعث

وصلت....

إلى ديار عبدإيل.....

كان قد ضاق صدري و لم يزل الضيق رغم يسر السفر و قربه، و لكي أنسى وجه يشجب، قلت لنفسي أني سأنزل ثقل هذا الضيق على أول انسانٍ أراه....

عندما دخلتُ المدينة، وجدتُ أمةً من الناس تقتتل على حوضٍ كلٌّ يريد أن يسقي، و رأيتُ سواديًّا ينتظر، حتى إذا انفرجَتْ فرجةٌ من الزحام، تقدم يملأ جرته، فأتاه آتٍ من خلفه و سَحَبَهُ حتى أسقطه أرضاً، فقلت في نفسي: (ظفرنا بصيدٍ اليوم)

فأتيته و سحبته ثم حملته و قلبته حتى قَبَّل ثرى الأرض بفيه، ثم أخذت جرته و حطمتها على رأسه، و أخذتُ جرة السوادي و ملأتها له.

فدنا مني و قال: "أي أخا العرب، الشكر للرب ثم لك"

فقلت: "انصرف، لا أريد منك شيئًا"

فقال: "ستلقى خيرًا أيها الرجل الطيب و سأدعو الرب لك"

غريب مجنون الليل - جابريل طلال

"و كيف تعرف أني طيب؟"

"لأنك تنظر إلي بعينك و تحدثني، غيرك تأخذه الأنفة على أن يمشي على نفس الأرض التي مشيت عليها، أخبرني باسمك أيها الرجل الطيب"

"شهاب ابن الأسود الرازي"

"و أنا نبيل ابن السموأل، فليحمك الرب يا شهاب الطيب"

راقبتُ الرجل و هو يذهب و لم أشعر أن الرجال حول الحوض قد تفرقت فزعًا من فعلي، وقفتُ مكاني انتظار أن يأتي شيخهم أو أحد من رجالهم، و طال انتظاري و لم يأتِ أحد، فربطتُ فرسي عند الحوض، إذ عرفت أن لن يجرؤ أحد على سرقتها، ثم مشيت حتى دخلت سوق المدينة.

سوقٌ ساكنٌ ليس به كثير حوانيت و دكاكين و لا تجار، يغلب بيع الأصنام على بيع الطعام، و بيع النجوم و الصلبان على الشراب و اللباس، ثم سألت أحد باعتهم: "أين شيخكم عبدإيل؟" فأشار إلى صومعةٍ في صدر السوق فدخلتها، فإذ بي برجلٍ يعكف راكعًا أمام صورة هلال يتوسط شمسًا يقف عليها ثور ضخم القرنين تحته شموعٌ شتى، فلما أحس بي قام من ركوعه و رأيت وجهه.

ارتبطَتْ في خاطري صورتي بصورة يشجب بصورة عبدإيل أمامي، شابٌّ نحيل هزيل أسود الجفون خالي الخدين، و من شكل العروق في رقبته، افترضت أن له جسماً كجسوم الحَمَام تحت تلك العباءة الغليظة الخشنة التي جعلت له سناماً كسنام الإبل.

ثم حياني: "اغفر لي خطئي يا أخي، إذ لم يسعني قطع صلاتي"

فقلت: "تعرف من أنا؟"

فقال: "في هذه المدينة ما من أحدٍ ينتصر لمظلوم مهما نصحتهم، فعرفت من أصوات الناس أن غريباً قد أتى و ليس بأي غريب، و قد نويت أن ما أنتهي من صلاتي إلا آتي لأستقبلك"

"أما من مسافرين يأتون مدينتكم؟"

"ليس سوى بعض التجار و ثلة من المؤمنين و قليل من الأشرار، و لكن في عقيدتنا لا نتبع الضرب بالضرب، و لا العنف بالعنف، و لا الشدة بالشدة"

"إنه لأمرٌ عُجاب أن العرب لم تأخذ ماءكم أو أموالكم طالما لا تردون الضربة بالضربة؟"

"إن الرب ألمقه يقدر علينا كل ما يجري في حياتنا، إن أصابتنا سراء فلخير عملناه، و إن أصابتنا ضراء فلذنبٍ اقترفناه، فنرضى بالحسنة و نصبر على السيئة"

عقدْتُ ذراعي تململاً و أسأل في سخرية: "ألمقه تقول؟"

"نعم"

"و هو ذا الوعل أو الثور الذي في الصورة و كنت تصلي له؟"

"هذه الهيئة التي اختارها إلهنا ليظهر لآبائنا في القرون القديمة، و إلا فإنه اتخذ من الزُهَرَة سكناً يرانا من هناك و لا نراه.....اصبر أريك"

و نزل أسفل قدمه الحافية المتقرحة و بحث في كومةٍ من الكتب تعالت ذراعًا، فلما رآني أنظر إليها قال: "قد كتبتُ هذه الكتب من وافر العلم الذي علمني أبونا، و يأتي القاصي و الداني و العربي و العجمي ممن يكتبون ليقرؤوا منها"

ثم استخرج كتابًا مكتوبٌ بلسان المسند و أراني ما فيه و أشار لصورة: "هذا عشتر الذي يعبده الملك، إنه ليس بإله، بل من أساطير الأقدمين صوروه وعلًا، الإله الحق الذي نعبده له صورة ثور و هو....."

أَبْعَدْتُ صورة غزالٍ أو وعلٍ عن ناظري: "اعفنِ من آلهة الماعز التي لا تنفع و لا تضر"

انتفض عبدإيل إلى الصورة على الجدار يسجد أمامها: "اغفر له أيا ألمقه! اغفر له فإنه لا يعلم!"

ثم قام و أخذ بيدي خارج صومعته: "سامح أخاك، فإني لم أُضَيِّفَك"

و انطلق بي إلى طرف السوق ثم استوقفني و ذهب لحانوت يكلم صاحبه بما لا أسمع، لكني عرفت أنه يسأله مالاً و رفضه، ثم جر رجليه جرًّا رجوعًا إلي، فبادرته سائلًا: "مالك؟"

فقال: "ليس عليك من شيء يا أخي"

"قلت مالك؟!"

".....هذا تاجر الحرير نعلائيم، منعني نصيبي من شركتي معه حتى أَسُدَّ دَيني"

تنشقت نَفَسًا، و فركت عيني، ثم أتيت هذا التاجر و سألته: "أيهودي؟"

قال: "من السائل؟"

قلت: "آخر ما ستسمعه من الدنيا هو سؤالي هذا، فأحسن الجواب، أيهودي أنت؟"

"و ما شأنك إن كنتُ يهودياً؟"

فأطبقت بيدي على قفاه و أنزلته أرضًا، ثم أخذتُ شملة حرير مما يبيعه و ربطْتُ بها رجليه، و سحلته أمام أعين أهل المدينة و علقته من عرقوبه على باب عطن إبل، و كان كلما صاح أو استغاث ألقمته لكمةً في فِيه.

ثم عدتُ لحانوته و استخرجتُ صُرَّة دنانيره و رميتها لعبدإيل: "خذ مالك، و لا حاجة لي بضيافة"

فأتى إلى راكعًا: "أي أخي، ما هكذا نصنع بمن سكن عندنا"

"هكذا نصنع باليهود يا عبدإيل، لا يستطيع إنسان أن يركب ظهرك حتى تركع، و اليهودي يُرَكِّعُكَ ثم يصعد ظهرك فَرَأْسَك و يغضب إن أنزلته، لا تعد إلى مشاركة اليهود، و لا تبتع منهم أو تبيعهم، إن من أبغض أهل الأرض إلي اليهود، لو كان ما كان، لسلطت نفسي على رمي كل يهود الأرض للبحر، ليس بِشَرٍّ من الشعراء إلا اليهود"

"ليس الكُرْهُ طريقًا يا شهاب"

"اترك صفصفاتك و أخبرني فقد أَطَلْت، أين دُفِنَ الأسود الرازي؟"

"أبونا؟ أَعْلَمُ أنه لم يُدْفَنْ في الجنوب و اليمن"

"فأنبئني بكنزٍ يبتغيه ملك الأقيال"

"و قد سألك عنه؟"

"نعم"

"امشِ معي"

فانطلق بي حتى خرجنا من المدينة، ثم قال: "إن ما تسألني عنه محرم في شرعنا ذِكْرُه على لسان"

فاستفسرت: "لِمَ؟"

تلفتَ عبدإيل حوله و تكلمَ في دنو صوتٍ: "إن هذا الكنز هو أَثَرٌ مقدس تركه لنا ألمقه، لا تراه عين و لا تمسه يد، يفلق الجبال و يشق البحار و يَقْلِبُ الليل نهار"

"و أين هو؟"

"في....أطلالٍ تبعد جنوبًا من هنا ثلاثة عشر يومًا.....سر يومين شرقًا، ثم عَرِّج يومين ما بين الشرق و الجنوب، ثم ثلاثة أيام شرقًا، ثم ستة أيام جنوبًا، أَبْصِرْ من حيث تطلع الشمس ترى ريحًا عاصفًا كأنما الكثبان تطير يجتنبها السيارة، فيها مرادك، و لكن احذر، ما من امرئٍ دخل هناك إلا و لم يعد من هناك قط"

أبصرته يتكلم كلام المغشي عليه من الموت، فقلت له: "ما لي أراك ترجف؟ أ ثَمَّ متربصٌ أم عدو يفتك بالناس هناك؟"

فقال: "لا...إنما أخشى...إن عَلِمَ من هم على دِينِي أني دللتك على الكنز.... أن يقتلوني"

"و لِمَ يقتلونك؟"

"لأن هذا...من شرعنا"

"أمركم غريب، تُحَرمون الضرب و تبيحون قتل بعضكم البعض، ثم لمَ تدلني على الكنز إن كان سيودي ذلك برأسك؟"

"إن ملك الأقيال غاضب علينا، فهو يريد أن يصرفنا عن عبادة ألمقه إلى عبادة عثتر، و يوشك صبره أن ينفد أن لم نلبي أمره، و الكنز، هو حبل نجاتنا كي يتركنا الملك و ديننا، و هو بمكانٍ لا تبلغه أيادي البشر، لكن إن وقع بيديك، نجونا جميعنا"

"لا تصله أيادي البشر، لا تريدون أن تقطعوا صلواتكم في أمرٍ فيه خلاصكم؟"

"هذا...و ذاك يا أخي....إن قَطْع صلاتنا، هو كقَطْع أعناقنا، أما الآن و قد ذَكَرْتَ هذا، فقد حان موعد الصلاة، ليغفر ألمقه لك يا شهاب و ليثبت خطاك"

"لا أريد البركة من وعلٍ أجرب"

"احذر يا شهاب، إن تمتحن صبر ألمقه ينلك عقابه"

"ليفعل ما شاء إن كان حيًّا"

قلتها و أنا أيمم وجهي تلقاء ناحية فرسي، كي أنطلق بها، لا ألقِ بالاً لصلواته و لا لأمره مع الملك، إنما أعود بالكنز ليشجب فيدلني على قبر الأسود.

**********

ثلاثة عشر يومًا طوالًا لأصل تلك الأطلال التي أَمَّرها لي عبدإيل، بعد أن اقتحمتُ عاصفة الرمل التي عَلِمْتُ لِمَ يتجنبها المسافرون إلا لشدتها و هولها، ثم مشيتُ خلالها ساعةً من الزمان، حتى أتيتُ سور مدينةٍ شاهق، رفعت رأسي فلم أرَ أين تنتهي قمة ذلك السور، و ولجتُ خلال بابها الذي كان بِطُول التلال، أنقاض و بيوت و مصانع منكفأة على نفسها، أصغر بيت منها كأعظم قصر مما عند بقية الناس وحتى من قصر ملك الأقيال، سقوفها يرفرف الطير خلالها من علوها، و بينها حدائق غناء يسقيها ماءٌ يجري من ذاته من جنبها، و عليها تماثيل كأنما تنطق و تلتفت إلي أينما مشيت، علمتُ أن هذه أنقاض إرم، حيث قضى قوم من العرب البائدة يدعون بعاد، قد أقرأني الأسود علاماتها، أهذا كان حال العرب يومًا؟ فكيف وصلوا لهذا النعيم؟ و من نزعه منهم؟ كيف صاروا إلى ما هم عليه اليوم من تشرذم؟

وقفت أنظر تلك الأطلال، كأني أسمع داعيًا يدعوني إليها، تفكرت كم من الرجال و الشجعان ربما دخل هذه الأنقاض و لم يخرج منها قط، قصور عاد عمرها يقرب التسعة آلاف عام، تسعة آلاف عام يبتلع هذا الحوت كل انسانٍ تسول له نفسه دخولها حتى ما عادت القوافل تجرؤ المرور جانبها.

ثم أتيت على قصرٍ بان لي و وقع في نفسي أنه المنشود حيث واجبٌ المضي، و دخلت بابه ذا الأربعة عشر ذراعًا طولًا، و مشيتُ بهوًا هو أقرب للنفق، حتى إذا أتيت على نهايته، إذ بثلاث طرق، أحدهما شقٌّ في الأرض للأسفل، و آخر للأعلى، و الثالث طريقٌ سالك يقع خلف شق الأرض.

تذكرت ما يقال أن من يدخل لا يخرج، فعلمت أن كل من دخل آثر القفز جهة الطريق السالك، و انتهى بأن سقط في الشق....لذا، شمرت ساعدي، و تسلقتُ الشق المؤدي للأعلى، مكنني من ذلك ضيق الشق إذ أسندتُ جسمي بذراعيَّ و ركبتي، حتى بلغت قمته.

و هناك...

راعني ما رأيت...

ما كان بجانٍّ و لا من وحوش البرية...

رأيته واقفاً..

رأيت كيان....

وديم محجوب الجنوب - حسين طلال

# 6.أسطورة

رأيته....

كان يقف في منتصف صحن القصر من طبقته الثانية، اِرْتَصَّت خلفه أسيافٌ في غُمُدٍ ذهبية يحمل كلٌّ منها صنمٌ على صورة رجل و لا يشبه أحدها الآخر في هيئته و لا وقفته، ثم تكلم كيان لما ظهرتُ بصوتٍ هز جوانبي:

"شهاب....."

"كيان!"

"لم تعطف الهاوية عليك...."

فرددتُ عليه بعد أن نفضتُ التراب: "هذا صنيعك بي ثم يخيب رجاؤك؟"

"بل تيقنتُ أنك ابن أخي و من بني جلدتي و تحمل عظيم دمٍ بين عروقك"

"رميتني من الجرف و حسبتني لن أموت؟.....ما الذي دعاك لفعل ما فعلتَ بأهل حاضرة عدن؟ ليس ذلك إليك"

"هو ذاك، كما رميتُ غيرك الكثير، و هو جزاء من لم يتبع العقل و رضي بالهوان"

"اللعنة عليك يا كيان! ما أراك إلا مثل ذونواس في استهانته بحياة الناس! تقتل أبرياءً بلا قلب!"

"قلب؟! أوتجرؤ أن تذكر القلب؟! لَمَّا تحمل أمانةً كثقل الجبال تتكلم حينها عن القلب! إن ذنب أبيك أنه لم يضع يده في يدي لنجابه طالع الحجاز! نحن! مِن سلالة عاد و إرم و مَن بنى ثمود و قصور الشام و العراق! نسترد سلطاننا و نعلو على العرب و العجم! و لكنه ذهب يأتي بأولادٍ لا قِبَلَ لهم و لا قوة و يضع يده

بيد النساء، فجعل اليمن توشك أن تقع بيد غير أهلها و يجعل أعزة قومها أصاغرهم، لن يبقى مكانٌ على الأرض لن يبلغه سلطان طالع الحجاز إن تركناه و أمره"

"لو عَلِمْتُ أن هذا الآتي آتٍ لا محالة لفررتُ من بلاد العرب و لا أقتل بريئًا"

فضحك، ثم قال: "انظر حولك يا شهاب، انظر كيف كنا و كيف صرنا، إن الأمم تولد ثم تشب ثم تشيب ثم تموت ثم تحيا ثم تشب، و إنا نوشك أن نحيا فنسمو على اليمن و على العرب و العجم.....بك أو بدونك"

ثم ذهب و أخذ أوسط السيوف الذهبية، و مما أعلمه عن السيوف، نظرة واحدة أنبأتني أن تلك ليست بسيوفٍ مما اعتاد العرب حمله، إن كان هذا هو الكنز الذي يفلق الصخر كما قيل لي، فأنا هالكٌ إن أتى علي هذا السيف.

ثم هاجمني به، و تصديتُ له بما أملك من سلاح، و لكني أحسستُ بثقل يده على يدي، و لم أدرِ، أهي قوة كيان كما جربتها قبلًا، أم من هذا السيف الذي بيده.

و تساجلنا أنا و هو دون أن تظهر لمن الغلبة، و مثلما صار آنفًا، أخذ التعب و الانهاك مني مأخذه، و أعددتُ نفسي لما هو آت، فأتى في عنفوان تبختره بقوته و طفق ينشد:

"أنا ابن صحراء عروب شامخٌ**عرفتُ المجد منذ عهد جدود

في أرضها شبّ الفؤاد معانقًا**ريح الرمال و شمسها بصمود

أَفْضِلْ بالقتل الكريم بسيف عز**على حياة في الهوان تسود

أنا الذي إذا ما جئت طالبًا**نصر الكرامة أن لا أعود بخمود

لا عاش من حيا ذليلًا خاضعًا**الموت أولى من حياة قعود"

ثم نزل بذلك السيف عليَّ، و لم أملك إلا أن اتقيته بساعدي، و لكن ما لم يحسبه كيان و لم احتسبه، أن السيف الذهبي تكسر و تحطم كالزجاج على ساعدي.

"و هذه....خطوةٌ نخطوها....إلى قدرنا المحتوم.....لعلنا لا نَفِرُّ منه كما يقال"

و ألقى ما كان بيده من باقي مقبض السيف و قفز من الشق نزولًا و صوت ضحكاته يملأ القصر الرميم، و أكاد أقسم أني رأيتُ عين الرضا على وجه كيان قبل رحيله، و كنتُ لأتنفس الصعداء لو كنتُ أخاف الموت و لكن....ها أنا ذا يهرب الموت مني.

نفضتُ عن نفسي الصعيد و قمت و تلفتُّ حولي، و كان من حُسْنِ طالعي أن البناء سمح لضوء الشمس بأن يركض حرًّا على الجدران و بقية المكان في قصورٍ لم تبنها رعاة إبل و غنم بل أقوامٌ ذوي علمٍ و قوة، و على الجدار وجدت مكتوبات و منحوتات بلسان قديم، و أتى أوان ما أقرأني إياه الأسود من لسان لغة عرب الجنوب و حمير و سبأ قديمها، فحاولت تفسير ما لم تره عين إنسان من آلافٍ من السنين.

حربٌ عظيمة، بين أقوامٍ أشداء البطش و الجبروت، هم ذات من بنى هذه القصور، و قد قهر هؤلاء الأقوام الجبابرة أعداءهم، و لم يضاهم أحد في عزهم و مجدهم القديم، و ظنوا أنهم قهروا أهل الأرض جميعًا، و أعماهم كبرياؤهم حتى نزل بهم غضبٌ من السماء فَصَيَّرَ مدينتهم و بلادهم و قصورهم و مصانعهم خاوية على عروشها و أثرًا بعد عين.

ثم صرفتُ بصري تلقاء الأصنام التي تحمل الأسياف الذهبية و عَدَدَتُّها فوجدتها سبعة تماثيل كل واحدٍ منها يشير بإصبعه إلى جهةٍ من السماء، عدا اثنين واحدٌ منهما إلى المشرق و الآخر إلى المغرب، فقلت في نفسي لعل كل

واحدٍ من هؤلاء يرمز إلى كوكبٍ من كواكب السماء مما كانت تعبده العرب، كان كيان أخذ أوسطها، المشتري، لعله ظن أن أوسطها هي الفضلى، و لكن عرب اليمن كانت تفضل الشمس و القمر، و هنا أتيت الذي يرمز للشمس، فوجدته صدئًا مهترئًا، و أتيت الآخر، و بذلت كل قوتي و جهدي على أن أخرجه من غمده فما قدرت، فعلمت أن هذا هو السيف المطلوب، و أن لإخراجه من غمده لسرًا، فاخبأته بين ثيابي و آثرتُ الخروج.

و بينما أنا أنزل الشق رجوعًا، داهمت خواطري إحدى تعاليم الأسود لي: "أن الصواب في مخالفة العامة" و هذا أكده فعلي من تركي للقفز للجهة المقابلة من الشق، و تتبعتُ خطاي رجوعًا حتى خرجت من القصر العتيق.

و طفقت أقص طريقي عودةً إلى ديار عبدإيل، حتى إذا قربت منها إذ برمال التي كنتُ أعددت لها كلامًا لو شاء القدر أن أراها، حتى إذا اقتربتُ منها قالت: "عمت مساءًا يا شهاب و عودًا حميدًا"

فنزلتُ عن فرسي و قلت: "أراكِ في سرور، فأنا أسير و أروح حيثما تبغينني"

"أنا لا أريد إلا السلامة لك أينما غدوت، فكما أرى إنما وُفِّقْتَ في مسعاك، و لا أبغي بك شرًّا"

"إن ما رأيته هو رجالٌ يجعلونني صبيًّا عندهم أقوم على خدمتهم و ما زلتُ بعيدًا عما أريد بسببهم، ربما يجب أن أقتل كل من لا يقربني إلى ما أريد كما يفعل كيان، و أبدأ بك"

فضَحِكَتْ: "إنك لست بقاتلي يا شهاب"

"أراكِ متيقنة"

"إنك إن تقتل كيان و تنفذ وصية الملك فلن يهرق دم امرئٍ بريءٍ بعدها" ثم مدَّت لي كتابًا: "إن ملك الأقيال يقرئك تحياته و يقول اقرأ ما في هذا الكتاب"

فقرأت: "من ملك الأقيال إلى الفتى شهاب، فإني أوشك أن أسير بجيشٍ عرمرم يأخذ بعصا الطاعة ممن أتيتهم من الأقيال إن لم يأتمروا بأمري، فأَعْلِمْ رسولي الذي أمامك عن خبرهم"

فطويت الكتاب و قلت للرسول: "ارجع إلى ربك فقل إن شهاب لا يهمه و لو غزوتَ الحِيرة"

فقالت: "إن ما صنعه كيان بك و بي من قسوة يجعل منا حلفاء و أولياء، و هو عدو لنا جميعًا، فاصغِ لوصية الملك نأتِ برأس كيان كأسرع من انسلاخ يوم"

فأجبت: "إنما أمركِ و أمر ملككِ و أمر كيان سواء لا أرى بينكم فارقًا"

"سوف أنظر في أمر كيان و أين هو و آتيك بالخبر اليقين، ليس من المهم أن تدخلني قلبك، و لكن أدخلني في حِلفك"

و لم أجبها و طفقتُ طريقي عائدًا إلى ديار عبدإيل على ظهر سيناء.

و ما إن لاحت لي ديارهم حتى وجدت أمة من الناس على باب المدينة و بينهم عبدإيل، الذي ما إن رآني حتى علت أصوات الناس يصيحون: "ليحكم ألمقه بينكما!"

فأتاني عبدإيل متشبثًا بجلابيب ثيابي: "ناشدتك ألمقه و الرحم و الأخوة، آلكنز معك؟"

فقلت: "نعم"

ثم أريته إياه، فكثر لغط من حوله يلطمون: "صابئ! صابئ!"

فسألته: "ما بال قومك يتضاضون؟"

فقال: "إنهم يطلبونني لأكفر عن إثمي أني أنبأتك بمكان الكنز"

ثم قطعوا كلامه بلغطهم: "ليحكم ألمقه بينكما"

و أتى آخر: "يا عبدإيل! إنك لتأمرنا بالصلاة حتى تتخشب ظهورنا و تذهب تجارتنا! و إنك إن ما تُحَكِّم ألمقه بينك و بين أخيك فإنا لراجموك و قاتلوك!"

فقلت: "أإنك لتأمرهم بالصلاة حتى تتخشب ظهورهم و يذهب اليهود بتجارتهم؟"

فأجاب: "هذا هو ديني و دين الحق، و إني أنزل على حكم ألمقه، فتخير يا أخي ما تريد"

"و ما أختار؟"

"إما أن أقتلك و إما أن تقتلني و إما أن تخلي الكنز و تدخل الصومعة فتعتكف مصليًا سبعة أيام"

"أما كنزكم فلا حاجة لي به، فخذه إن شئت، و لكن لا تشغلني بصلاتكم، أما كفاك أنكَ لم تدلني على قبر الأسود و أرسلتني إلى مكانٍ يموت فيه الرجال؟ و دللتَ كيان على ذات المكان من قبل؟"

"هو ذاك يا أخي"

"لا تفعل ما لا تريد فعله يا عبدإيل، دعني، لا حاجة لي بقتلك، فِر من الملك إن شئتَ و لك عهدي أني لا أدله عليكم"

"الملك.....الملك الذي يريد أن يصرفنا إلى عبادة إلهه الأفك عثتر، و ما عثتر؟ ليس بإلهنا! يريد أن ينزعنا أجمعين من عبادة ربنا ألمقه! و إنا إن فعلنا ما بقي لنا من حياة حق، و العذاب الأليم مآلنا.....إن ألمقه قد حكم.....مت يا شهاب!"

و ألقى ما على كتفيه من رداء، كاشفًا عن جسدٍ ضئيلٍ هزيل، و استل سيفًا يريد قتلي، و ظللتُ أتجنب ضربات و هفوات سيفه، أراه أجادٌّ هو في نيته في قتلي، حتى استحكم عندي المعتقد أنه لا يريد إلا ذلك، فتقرر عندي أن أنهيه من بؤسه و لم آت جهدًا و أنا أقتله بسيفه هو، ما ترك لي خيارًا، لم أخش الموت قط، و لكن أن يهزأ بي من ليس بعقله إلا الصلاة لصور الحيطان، فليس أمامه أن يقع ضحية سطوتي.

و سقط عبدإيل، و تفرق عنه قومه هاربين يندبون: "النجاة! النجاة! إن أتاكم الملك إنكم لهالكون!"

فأتيته عند رأسه و قلت: "أنت تعلم أني لم أكن لأقتلك إن خليتني و شأني"

فقال: "و لكني قاتلك لو عاد بي الزمان، ليرحم ألمقه روحي و روحك يا أخي، سوف أناجيه ليسامحك يا أخي أنك لم تنزل عند حكمه، و سأناجيه ليعذب الملك عذاباً لا يعذبه أحدٌ من قبل و من بعد، ألمقه.....ليسقط عابد عثتر.....ليسقط عابد عثتر.....ليسقط عابد.....ليسقط.....ليس....."

و ابيضت عيناه و نفدت أنفاسه...

نظرتُ إلى وجهه، فإذا وجهه وجه من دفعَ دفعًا للقتل، و لكني لم أجد في نفسي عذرًا له.....

و امتطيت سيناء، و يممت وجهي تلقاء منازل يشجب....

# 7.أعماق

في الأفق قبل أن تلوح لي منازل يشجب، تصاعدت سحب دخانٍ، تلتها حين قربي نيرانٌ تشتعل في سكن الناس، و هم ما بين مشغولٌ بحمل متاعه، و مذهولٌ يبغي الهرب و الخلاص و النجاة بحياته، النجاة من بطش خيل ملك الأقيال يغزوهم و يسوي بيوتهم أرضًا.

أسرعتُ بسيناء لأنظر و أرى عن قرب، فما إن رأتني الخيل حتى نادى منادٍ أن هذا رسول الملك فلا يمسنه أحد.

فدنوت من المنادي و قلت: "ما حَمَلَ الملك أن يأمركم ما تفعلون؟"

فقال: "إنا نرسل الناس ما إن يأتي شيخهم و يذهب لملكنا صاغرًا خاشعاً ذليلًا"

فقلت: "فأنا خصمكم، و لا ينجو منكم أحد إن رفعتم سيفًا على أحد، و ليجرؤ من يجرؤ فأريه ما أنا به فاعل، و أنا آتيكم بالقيل فتأخذونه و ترجعون لملككم"

فتراضوا بينهم، ثم إني طُفْتُ بين الناس، فلَقِيتُ ذا الشيبة الذي كلمني منذ مدة في دَيْنِهِ و سألتُه عن يشجب، فدلني على ناحية من البادية، إذ أنه أتاه بجزءٍ من دينه فَأَخَذَهُ منه و أسرع مغادرًا.

شكرتُ الرجل و قَصَصْتُ أثر يشجب، فأدركته و قد بَعُدَ أميالًا في الصحراء يحمل كيسًا كبيرًا، فلما اقتربتُ منه فَزِعَ و ارتعد، ثم هدأ لما عرفني، فوضع متاعه ثم تشبث بي: "ناشدتك الرحم أي أخي، احملني معك و نجني!"

فسألته و أنا أعلم بجوابه: "ما حملك على فرارك؟ أتترك قومك يفتك بهم خيل الملك و أنت شيخهم؟"

فقال: "إن جند الملك إن ظفروا بي قتلوني الساعة"

"و لمَ يقتلوك؟"

"لا علم لي"

"بل تعلم"

فسكت، و حك شعره و لحيته و شاربه و كل وجهه كمن يحسب حسابًا "الأمان يا أخي، إني أصدق معك فلا ترجعني إلى الملك" نطق أخيرًا.

الأمان، يا لها من كلمة تنطقها العرب حين تنغلق المغاليق عليهم، كأن لم يكن قائلها قبل ساعة ليقتل من كان أمامه لولا تَغَلُّبِهِ عليه، آثرتُ أن أُأَمنه، لا لأنها عادات العرب، بل لأني لا أروع ضعيفًا و لا أفزع عاجزًا، فأعطيته أمانه.

قلت: "إني مؤمنك من خيل الملك"

فقال: "إن ملك الأقيال يطلب نصف خراج عامنا كله من تجارة و زرع، و لنا عليه أن لا تَغِير علينا أحياء العرب و يحمينا منهم"

"إن له لجندًا كثيرًا ينفق عليهم"

"فلينفق عليهم من ماله هو! إنا نعمل و نكدح فيأتي و يأخذ مالنا؟! كلّا!"

"أبينكم جائع؟ معترّ؟ معدم؟"

"لا"

"فما غضبك؟ إن العرب كوحوش البر، يأكل بعضها بعضًا، و أنتم لم تتخذوا وقاية، مَثَلُكَ كَمَثَلِ عبدإيل و قومه، يرجون الملك و يخافونه، يريدونه و يكرهونه"

"قد فات أوان الكلام، و إني ناجٍ بنفسي و مالي، مالي الذي أوتيته بحكمتي و عقلي"

"و تترك قومك؟"

"كلُّ امرئٍ و نفسه، و كل مالٍ لصاحبه أحق، و أقول، ألكنز معك؟"

"و ما سؤالك عن الكنز و أنت بين موتٍ و حياة؟"

"الكنز حقٌّ لي، أنا دَلَلتُكَ عليه، و نَحَلْتُكَ دنانير و مؤونة، قد أوتيتَ أجرك، فأعطني ما هو لي، و إني معفيك من زيادة ما أعطيتك"

"زيادة؟"

ضاقت عيناي اللامعة، فَاسْوَدَّ وجهه لذلك و قال: "مـ مالك يا أخي؟ لن آخذ منك زيادة، لا آخذها إلا من العوام"

هنا، ضاق صدري، و اشترخ رأسي، لأني عرفت من هو هذا يشجب و من يكون، فنزعت من يده كيسه و فتحته، فإذا مملوءٌ عن آخره ذهبًا و فضة و لؤلؤًا، ما خلا قوسًا و نبلًا.

فالتَفَتُّ إليه و هو مضطرب: "ما هذا يا يشجب؟"

قال: "هذا مالي، كسبته بيدي"

"من الربا؟"

"سمها ما تسمها"

"يشجب....أئنك ليهودي؟"

"و ماذا في ذلك؟"

"يهودي.....تكسب مالك بالربا؟"

"و ما شأني إن كانت العرب لا تفعله؟ المال مالي"

"إن هذا لا غبار عليك و لا غشاوة، كان عبدإيل يعبد حيوانًا، و أنت تعبد أقل من الجماد، تحتج أنك لا توافق العرب، أهذا ما تقوله لنفسك كي تعتز بها؟"

"أرسلني يا أخي، دعني و أمري"

"نعم، لولا أني أَمَّنْتُك و أعطيتك عهدًا، لكان ما كان"

"لن تدل خيل الملك عليّ، أأتمنك على هذا؟"

لم أَرُدْ، و لم أُرِدْ أن أَرُدْ، كيف لمن له ذات دمي و وجهي و أصلي، أن يكون يهوديًّا، أبغض أهل الأرض إلي، يعبدون المال عبادة معين لمتب نطيان، و الغدر يسري في دمهم سريان المال في الجدول.

تجاهلت صراخه و عويله، ثم عرفت و استشعرت ما هو موشكٌ على فعله، فاستدرت في خفة، و أمسكت النبل الذي رماه عليّ، جزع و خاف لما رآني أمشي ناحيته، فرمى بنبلٍ، و آخر، و آخر، حتى استكمل جعبته من السهام، و ما أصابني منها شيء، حتى استويت واقفًا أمامه، فجثا و بكى: "الرحمة الرحمة يا شهاب!"

فقلت: "قد عرفتُ خيانتكم معشر يهود و جُبْنَكُم"

فاستجدى: "إني بين يديك صغيرٌ كسير، لتكن السيد و لتكن شيخًا، و اعفُ عني، فلا تراني"

و بينا هو يبكي، ظن أني لم أرَ يده و هي تُخْرِجُ خنجرًا صغيرًا من أسفل نعله، و دفع به يريد عيني، فما كان مني إلا أن أمسكت يده، و أُسْقِطُ الخنجر، و ظل يتلوى كالضب.

هنا....قَرُبْتُ من أذنه و همست: "قد وعدتُّ القيل يشجب الأمان من الملك، و لكن لم أَعِد اليهودي الغادر من شهاب ابن الاسود الرازي"

و نَحَرْتُ له رقبته بخنجره، و تَرَكْتُهُ يغرق و يختنق بدمائه....

**********

لم أنطلق من فوري، بل جلستُ بعيدًا من جثة يشجب حذاء سيناء كي أهدئها و أسكنها، و لما استقرَّتْ و بادرتُ بالرحيل، إذ برمال تقدم ناحيتي، و كأن لم يكفِ أني قتلت رجلين آنفًا، و لما دنت مني قالت في سخرية: "أين أذهبُ الآن، هو سؤالك، و لكن متى تذهب هو ما نريد جوابه"

فقلت: "فليكن يا رمال، تخيري ما أقتلك به، بالكنز؟ أم بيدي؟"

"شهوة القتل هذه واجبٌ عليك أن توجهها تجاه كيان، لا لأحدٍ آخر، و أنا لا أبغي أذيتك البتة"

"دعي عنكِ كلام الأمهات الفارغ هذا، كلانا يعرف من تكونين بحق، كان يجب أن أقتلك عندما حانت فرصتي"

ضَحِكَت رمال في استهزاء ثم ردت: "إن كُنْتَ عرفتَ من أكون فلن تقتلني، لن تقتلني لأن قَتْلَك إياي سيعصف الأمور عليك، لا يا شهاب، من يجب أن تقلته و يجب أن تفعلها هذه المرة، هو كيان"

"أنتما متشابهان، تعتريكما الجِنَّة"

"التشابه، هو أن الموت سيأتي لنا جميعًا، و الفرق هو متى"

".....لم اخترتنِي لأنفذ مسعاكِ في قتل كيان؟"

"كلٌّ له مراد لا يستطيع العيش دون أن يأتي به، الأموات هم من يعيشون دون مراد، كيان له مراده، و أنا لي مرادي، و الذي إن حَقَّقْتَه جَزَيْتُك أحسن جزاء"

"لا يعنيني أمركم"

"بل يعنيك إن كان لنا عدو مشترك، ما فَعَلَهُ كيان بك، فَعَلَهُ في كثير من الخلق، بَرٍّ و فاجر، صغيرٍ و كبير، ذكورًا و إناثًا، و إن هجمة الملك على ديار عبدإيل و منازل يشجب قد أنبأتني بمكان كيان و أين يختبئ، إنه يأوي إلى وادٍ يسميه الملك وادي العَنَدْ شمالًا من حيث وضعتك عند قصر الملك بالحوطة"

حزَّ في نفسي أنها وجدت لي وجهتي، و حزَّ كذلك أنها لم تأبه أني عرفتُ من تكون هذه رمال حقًّا، لذا ارتأيت ألا أظهر ذلك، أقلها من حركة عيني، فقمت و ارتقيت على ظهر سيناء.

"فلتحذر يا شهاب، إن شرًّا كبيرًا يوشك أن يحيق بجزيرة العرب، فخذ من الحيطة و الحذر ما استطعت" قالت قبل أن أوليها ظهري و أسير في طريقي.

ارتقت شمس النهار ثم أَفَلَتْ هي و القمر ليال و أيام حتى وصلتُ وجهتي.....سيناء....لو كان لي وجهٌ لقَبَّلْتُها جزاء ما منحتني إياه، نزلتُ من على ظهرها و أكملتُ طريقي معها نصعد مرتفعًا لما قبل وادي العند كما سمته رمال، فرأيتُ منظرًا أشبه بالفردوس، تطل الشمس الحمراء على شلالٍ يصب في عينٍ صافية بجوارها دغلٌ شديد الخضرة.

و على مشرفة المرتفع قريبًا من الحافة، صومعةٌ و بئرٌ و غُنَيْمات، يعلفها رجلٌ سوادي انتبه لمجيئي، فعرفني و عرفته، إنه ذلك الذي وجدته يسقي في ديار عبدإيل، نبيل.

فحياني لما رآني فرحًا: "مرحبًا بك أيها الرجل الطيب! اسمك شهاب على ما أذكر؟"

"نعم، و أنت....نبيل ابن السموأل؟"

"أثلجتَ صدر هذا المنحني شيبًا، ادنُ أي بني"

فدنوت و جلستُ على حصيرٍ حذاء جدار بيته، فجاء و صبَّ لي قدح لبن مما حلبه من شياهه، ثم قال: "إني لا يزورني الناس اعتيادًا، فضيافتك هنا مما يسر الناظرين"

فسألته: "أتسكن وحدك اتقاء وجوه الناس؟"

فأجاب مبتسمًا: "لا يسأل هذا إلا من عرف لذة اجتناب الناس و العوام"

ثم شربتُ ما صبه لي لما وجدتُ إجابته عين ما أراه في نفسي عن الناس تعجزني في الرد عليه، ثم باغتني هو: "لِمَ تصعد هذا التل الذي لا يأتيه بشر؟"

قلت: "أتيتُ خلف انسانٍ بيني و بينه دم"

"أقتل لك عزيزًا؟"

"لا"

"فهدم عليك حائطًا؟"

"لا"

"فأهان لك عرضًا؟"

"لا"

"فما الدم الذي بينكما؟"

غريب مبين الجزء - حسين طلال

"....."

"فأخبرني، أقاتلٌ هو؟"

"نعم"

"فأسلم ديةً أو عُفِيَ عنه؟"

"لا"

"أَفَقَتَلَ صَيْلَةً؟"

"لا"

"أنادم هو؟"

"لا"

فتبسم، و لم أفهم سبب تبسمه، لكنه قال: "فإنه حلال الدم، فإن شئتَ، أحققتَ عدلًا، و إن شئتَ، لم تلطخ يدك، و الأمر إليك"

فسألته: "فهل مر عليك انسان قبلي من هذا الوادي؟"

فقال: "مر رجلٌ ضخم الجثة أسفل الوادي منذ ثلاثة أيام، و إني لأظنه ماكثًا هناك منذ ذاك"

فهممتُ أن أقوم، فأمسك يدي: "انحر لنا شاةً نتغدى منها"

فتعجبت أمره: "إليك عني، فإن طريدي على مرمى حجرٍ مني، و قد قطعتُ نصف اليمن سعيًا خلفه"

"إن طريدك على كلامك لا يخشى موتًا و لا قتلًا، و إني أراه لا يبرح مكانه، ففيم العجلة؟ و أرى في عينيك التعب من قلة نوم، و قد اشتهيتُ شواءَ الليلة"

غريب مجنون الجزء - حسن طلال

و لما رأيته مصرًّا رضختُ لطلبه رأفةً مني و استئناسًا له، إذ لم أكلم انسانًا عاقلًا منذ دهر، فقمت و أعددتُ حطبًا و نارًا، و ذبحتُ شاةً من شياهه و شويتها و وضعتها أمامه، فقام و طيَّبها مما يطيب به أهل الهند و بني الأصفر طعامهم، و لم أسأله من أين له هذا، إذ أنستني جودة و لذة اللحم ما كان مني، و أكلنا و أترعنا حتى استوفيناه، ثم ثَقُلْتُ، و لم أشعر بنفسي راقدًا خامدًا حتى انتصف النهار، أنا الذي كنت أوقظ الشمس أيقظتني هي على حر الظهيرة.

ارتعدت فرائصي، كيف تركتُ نفسي تنام دون رقيبٍ من غَادِر، و تفقدتُ متاعي فوجدته كله معي، حتى الكنز، و كدت أقفز على الصوت الذي كلمني و أنقض عليه لولا أني عرفته.

"عمت صباحًا أيها الطيب" قال السموأل و هو يقرب لي قدح لبن.

"عمت صباحًا يا سموأل، أو نبيل، اعذرني فلم أدرِ بنفسي و استفضت في نومي" اعتذرت له.

فقال: "أدعنِي ما شئت باسمي أو باسم أبي، و ليس بك من بأس و لا عليك من حرج، فأنا أنام وقتما أنعس، و أقوم وقتما اكتفي"

"و كأن الحذر حمل متاعه عنك و غادر" قلت ساخرًا.

"عندما تمضي سنينٌ من عمرك مثلما مضت معي، تعلم في أي بقعةٍ ترمي برأسك هانئًا، و متى تأكل و ماذا تأكل و مع من تأكل"

"أليس في جعبتك سوى الأكل و النوم؟"

"و ماذا يترك لك اعتزال البشر و همهم و غمهم و مشكلهم سوى أجمل ما تهديك هذه الحياة؟"

"أهذه حياة؟"

"هي حياة، و هي جميلة، و هناك أجمل منها"

"كتلك التي يعيشها كسرى و هرقل؟"

"بل أجمل"

ثم جلست معه و أعنته في بعض شأنه، و ذهبتُ أسقي معه من بئرٍ غير التي كان يسقي منها، و ظللنا نتجاذب أطراف الحديث و خضنا في كل شأن....

أردت أن أضحك معه لبعض حكاياته، جسدي لا يستطيع الضحك، لكن قلبي ضحك معه، حدثني عن كل شيء، حدثني عن حكايات أقوامٍ لم أسمع بهم و لم أقرأ عنهم، حدثني عن مكارم لا تفعلها العرب، كالمغفرة و التساهل و الود و اللين و العطف و اللطف، حدثني أن البشر ليس لأحدٍ فضل على أحد، و أنهم سواسية يستوون خيرًا و شرًّا، حدثني عن أن الصواب صواب و لو لم يفعله أحد، و أن الإثم إثمٌ و لو ارتكبه كل أحد.

أشرفت الشمس على المغيب، لم أردها أن تغيب، أردت الشمس أن تحبس و تجمد، و لكن لا حيلة، أردت المكوث مع السموأل، و لكن هدفي لابد منه و إن طال الزمن، و لربما أعود إليه بعد أن أنفذ قسمي على نفسي، أن أقتل كيان، و أنبش قبر الأسود.

"إنك إن لم تجد صاحبك، فَسِرْ أيامًا شمالًا جهة مأرب حيث عرش ملكة سبأ الحكيمة بلقيس تجده هناك"

لم أسأل السموأل كيف عرف، فقد سألته قبلًا أثناء حديثنا حتى استحييت منه، ثم استودعته، و نزلت الوادي مرورًا بالدغل بعد الشلال، فأتيت على كهفٍ و أثر نارٍ و خيمة مما يعرف أن انساناً كان هنا، غير أن هذا الانسان قد غادر منذ وقتٍ ليس بقريب.

فيممت شمالًا، و أتيت على بدوٍ على جمالهم، لم أرد سؤالهم، إذ أني اتجنب حديث البدو، لكن ما باليد حيلة، فسألت فقالوا أنهم رأوا رجلًا ضخم الجثة مرتحلًا شمالًا جهة مأرب، و أنهم غالبوه على بعض أشعارهم فغلبهم، فعرفت أن المنعوت هو كيان.

## 8.زوبعة

بضع ليالٍ و أيام أوصلتني متجنبًا المدينة إلى أعمدة مأرب و معبد عرش بلقيس...

شامخة....صامدة....ذات هيبة.....

تشهد على أن قومًا أولي قوةٍ و بأسٍ و حكمةٍ سكنوا و حكموا و عاشوا هنا...

و هناك.....

في قلب تلك الأعمدة....

كان كيان....

يقف يشاهدها و لا يبدِ حراكًا....

كنتُ أمتلك القدرة على التحرك دونما صوت و لا يشعر بي أحد، و لكن ما إن دنوت منه حتى قال دون أن يلتفت: "أعلم أنكَ هناك يا شهاب"

لم يهزني ذلك، إذ أعددتُ في نفسي أن رجلًا في خصاله لن يصعب عليه معرفة أن هناك من يتعقبه أو يسعى خلفه، فأجبت في هدوء: "أرسلني خلفك من يبغي موتك، و عجبٌ أنك انتظرتني هنا"

مؤسسة المجنون الجنوب - حسين طلال

فضحك ضحكةً خفيفة: "و هذا الذي يبغي موتي لو قال لك أني في قعر جحيم مستعر أكنت تقتحم فيها سعيًا خلفي؟ أهي رمال؟ أم شهاب؟"

"كثيرةٌ هي الدماء على يديك، فأنا أنهيك اليوم لأجل أيٍّ منها"

"رمال لا تعلم من هو عدوها، و لم تترك أحدًا لم تتشبث به لأجل ما تريده في جزيرة العرب، فلا تكن كالعهن في أيديهم و ابقَ بعيدًا عن مآربهم"

"لباطن الأرض أحب إلي من أن أقابل رمال تلك، غير أنها من دلني على مكانك حتى نسوي ما بيننا، و الآن، واجهني، فإن الطريد لموشك منتهاه"

"إن هذه ليست مطاردة بين فريسةٍ و صائد يا شهاب، نحن ممن وُضِعَت اليمن و جزيرة العرب بين أيديهم ليقرروا مصيرها، نحن أكبر مما تفعله العرب من ثأرٍ و دِية، و قصتنا لا زالت تُتْلَى، نهايتها ليست هنا، بل نحن من يكتب النهاية، بانتصارنا، أنا أو أنت"

"واجهني يا كيان! فحتى أنت لا يجدر بك أن تموت ميتة الجبان"

مشى كيان ثم مسح العمود الأوسط من تلك الأعمدة ثم التفت: "أليس يُعطى للميت وصيةٌ أخيرة؟"

فرردت: "لا أراك منحتني هذه الشفقة قبلًا"

"سايرني، فكل ما أريد أن تسمع.....نحن هنا في آخر معقلٍ لممالك العرب قبل أن تتفرق في الأرض و يصيروا قبائل متناحرة تسكن الخيام، بدلًا من ملكٍ في قصورٍ و قلاعٍ و حصون، هنا....وَقَعَتْ لعنة العرب و اليمن، فمنذ سَقَطَ السد و اليمنيون في تخبط، و كأن بلادهم تريد لفظهم من أحشائها، و هم شعبٌ إن جمعته ضَعُف و إن فرقته قَوِيَ، و كان أخي الأسود قد أراد غير ذلك، و أعلم أن هناك من حدثك عن أمره، فمنذ سمع بكهانة طالع الحجاز و هو في مسعاه لأن

يضع مُلْك اليمن في نسله....كنت هناك عندما رجع و أخبرني بالأمر، لم أعارضه، و لكن بعد ثلاثين سنة لم أجد بدًّا من أن أنقض عهد أخي بعد أن رأيتُ أبناءه يلوون رقابهم لأجل ملك الأقيال الذي لم يجدر به أن يكون ملكًا"

قلت: "و ما أدراك أن عهد الأسود لن يأتي أُكُلَهُ؟ أليست هذه عجلةٌ منك؟ فهذا الأمر يأتي في خمسين سنةٍ حتى، ربما إن تركتهم يأتون بملكٍ لليمن و يكونون ندًا لطالع الحجاز أو أيًّا ما تخافه"

فقال: "اصبر أخبرك، بينما أخوتك كلٌّ في شغله لا يعمل لأجل عهد الأسود، كان طالع الحجاز قد سار في آلاف من الرجال و أسقط رأس الأمر في قلب الحجاز و استولى عليه، و هو يعد العدة للرأس الثاني، و سارت قبائل العرب إليه تطوي نفسها تحت جناحه و تمكن من نفسها فهي طوع أمره، و طالع الحجاز يظهر عليه أن لن يرضى بجزيرة العرب فحسب بل يضع عينيه على العراق و الشام، و تُرِكْتُ أرثي عهد أخي الزائل، فرأيت أن أمنع من بمقدوري أن أمنعه من شيوخ و سادات اليمن من القدوم على طالع الحجاز ثم أتولى أنا إنفاذ عهد الأسود"

"هذا كلام من يريد خرابًا لا بناءً في اليمن، و إلا فأنت لا تختلف عمن رأيته حتى الآن، من ذا الذي يعطيك الحق في أن تقتل و تفتن و تفتك و تتنزع هذا الحق منهم؟ أفعالك ليست إلا أفعال وحشٍ يريد أن يكون آخر من يقف في الميدان"

"دع عنك هذا الكلام يا شهاب! فأنت تعلم حق العلم أنه لا أنا و لا أنت نشبه العرب في أي خصال مهما تشابهنا معهم و إن كنا نريد أن نملك عليهم، لا عيب في القتل يا شهاب إن كان في صالح البلاد، و إن دُفِعَ بالكراهية إن كانت على حق، فإن كنتَ تبغضني على ما فعلت بك فافعل و لكن بصدق.....ثلاثون سنة من بداية عهد الأسود.....أُتْرَكُ أنا عندها بين خيارين"

و أخرج من جعبته دائرةً فضية كالدرهم الفارسي، و لكني عرفتها على أنها زمكة حيئلية على إحدى وجهيها شكل بومة و الوجه الآخر عليه صورة ملك سبئي قديم، ثم أكمل يقول:

"لنقل أنها كوجهي الدرهم يُرمى، إن وقعتْ الزمكة على وجه، نسير نحن مع من سار من قبائل اليمن و نقدم فروض الطاعة و الولاء و الخضوع و التسليم لطالع الحجاز، و إن وقعتْ على وجه، نجمع من نجمع على حرب طالع الحجاز و نفنى عن بكرة أبينا و نموت و لكن ميتةً شريفة شامخة نسطر أَنَّا قدمنا حريتنا على حياتنا"

فقلت: "فما الحيلة إذًا إن كان طالع الحجاز ذا بأسٍ شديد و قوة و منعة و لا مناص لنا إلا التسليم له أو الموت؟"

ابتسم كيان، ثم ضحك ضحكةً خفيفة كالهمهمة، ثم رفع الزمكة: "هناك خيارٌ ثالث، خيارٌ إن عَرَفَتْه العرب عامة و اليمن خاصة، أتت إلينا صاغرة و جعلتنا ملوكًا و أسيادًا، و هو في جعبتك، إن عرفتَ سر الكنز و فسرته، و إن أتى هذا السر في يدك، لم يجرؤ أحد على أن يسلك نفس طريقك، و هذا الأمر، واجبٌ عليك أن تتمه، و لا تكن مثل إخوتك"

"لقد قلتها يا كيان بلسانك، إن للزمكة وجهين لا أكثر"

"نعم، و لكن.....ماذا لو امتلكت ما يكفي من الوقت لتحاول؟ لترمي الزمكة ما يكفي من المرات....حتى يأتي اليوم التي تسقط على طرفها"

ثم تولى راحلًا كيان و تركني متسائلًا، لماذا لم يطلب مني الكنز و هو على الراجح يعلم أنه معي؟ و هذا أدى لسؤالٍ ثانٍ و هو لماذا تركتْ كيان يذهب سالمًا و هو كان بين يدي؟ ما السر الكبير الذي يجعل من كيان يؤمن أنه في

الحديدة المعلقة على ظهري مصير العرب يقع عليها؟ و هل يكون لها من القوة ما يطيح بطالع الحجاز؟ و من يكون طالع الحجاز؟

ثم قطع حبل أفكاري سماعي لضبح الخيل و ارتفاع غبارٍ في الأفق، فأخذتُ سيناء و ارتقيتُ معها تلةً خلف الأعمدة، فأبصرت و هم لا يشعرون بي، جيشين متقابلين على معسكرين متباعدين، مَيَّزْتُ من ألوية و أعلام أحدها أنها لملك الأقيال، و الأخرى لم أميز من هم إذ لا لواء لهم على كثرتهم.

ثم سمعتُ خصف نعلٍ من خلفي، فأبصرتُ فإذا هي رمال سَمِعَتْ و رَأَتْ كلامنا كله، و لم أرَ وجهًا قلقًا من قبل كوجهها ساعتها، فخاطبتها مستهزئًا: "آهٍ يا رمال، تلك النظرة على وجهك لا يعدلها ذَهَب، تلك النظرة عندما لا تسير الأمور كما يشاء المرء، أما حصل أن لا شيء مضى كما تشائين؟"

فَرَدَّتْ في وجهٍ قلق: "قد صَبَّ كيان سمًّا في أذنيك من كلامه، و حرضك علينا نحن حلفاؤك و جعلك ترى فينا أندادًا"

فأجبتُ: "لم نكن حلفاء و لا تولينا بعضنا، و إن كان لنا ذات العدو"

فَسَأَلَتْ في ضيق: "لم تركتَ كيان؟ قد كان بين يديك و تحت رحمتك"

"نعم، كان بين يدي و تحت رحمتي، و أنا اخترتُ الرحمة، لأثبت أن أمري بيدي لا بيدكِ و لا بيد ملكك، و الحق الحق أقول، أني تنورت بعلمٍ من لسان كيان أكثر من لسانك و لسان الملك"

"و لكن بتركك لكيان قد حكمتَ علينا كلنا بالفناء، إن تركت كيان يتسبب بموت أبناء الأسود و ملك الأقيال فلن يعود أمر العرب كما كان، و وحشٌ كاسر يجوب أحياء العرب بلا رقيبٍ و لا حسيب"

"لينتهي أمر العرب فهذا آخر همٍّ لي، فهم في بهيمية يأكل بعضهم البعض كهوام البادية، و كأن بقاء الملك أو كيان يُغَيِّرُ من تلك الحقيقة، الحق أن العرب لا طائل و لا ذِكْرَ لهم بين الأمم، فيما تتركينني أتخبط بين اليهود و الشعراء، و لم يهمك أني قد أموت فيما بين ذلك و لا آبهة بما أريده أنا و لا تفصحين لي عن أمرك و ما وراءك طالما لا يخرج كيان حيًّا تنشدين نفس القصيدة التي شرخت رأسي اقتل كيان اقتل كيان! سأسلك الدرب الذي أراه صوابًا أمامي"

"أين تذهب؟"

أمسكتُ رمال و أمرتها أن ترتقي سيناء: "تعالي معي يا رمال، فإن الجند إن رأوا امرأةً لا يرمون بالنبل، ستأتين معي إلى ذلك المعسكر البعيد، ثم بعد أن نبلغ مأمنًا سأطلقك"

"إنك لا تفقه ما تفعل يا شهاب و لا تدري أين هو صالحك"

"لم أعد آبه بطلبك لي و لا بدَينك علي، فلتهلكي في أي وادٍ سحيق لا أبا لك"

و أَصْعَدْتُها ظهر سيناء و مشينا حتى وصلنا المعسكر الذي ليس فيه لواء، و جاء جنده و قد وضعوا سلاحهم و نبالهم لما رأوا امرأة أعجمية "من أنت يا أخا العرب؟"

"أنا شهاب ابن الأسود الرازي، و هذه أَمَةٌ اتخذتها دليلًا"

فالتفت بعضهم إلى بعض و قالوا "أئنك أخو شيخنا؟"

قلت "نعم" و أنا لا أعلم من يكون من أبناء الأسود الرازي شيخهم و لكني أعلم أنه موجود، ثم تركْتُ سيناء مع رمال و أمرتها بالرحيل، انصاعت سيناء للجام رمال، إذ أنها تعرف من هي، و التفتت رمال لفتةً ساعة تجاهي، لم أر وجهها لأني لم أبادلها الالتفات، ثم انطلقت أخيرًا.

اقتادني الجند و كلما رآني أحدهم انحنى أمامي كأنما يركع لي، حتى انتهيت إلى فسطاطٍ عظيم، و كما حصل معي مع عبدإيل و يشجب، رأيتُ رجلًا له نفسي وجهي و وجههم، غير أنه ضخمٌ عريض هو أقرب لكيان من الأسود و مني.

"أنا كهر ابن الأسود الرازي"

و مد يده يصافح، فما وجدت يدًا و ذراعًا أشد من ذراعه، توحي بأن الرجل ذو شأنٍ لا يجدر التهاون أمامه، و أنه رجل مواقف و أفعال، و قد يسألني سائلٌ لو كان واقفًا و ما أدراك لقلت إنها من أمور الفراسة التي علمني إياها الأسود، فكثيرٌ تعرفه عن المرء من مصافحة يده.

"أنا شهاب ابن الأسود الرازي"

ثم قربني و أجلسني بجواره على سريره: "قد حَمَلَتْ الريح أخبارك إلي و عَلِمْتُ ما فَعَلْتْ، و إني لأراك على قويم الصراط"

فسألته: "ألا ترَ بأسًا في قتلي يشجب و عبدإيل؟"

"إن الضعيف مصيره أن ينطمر تحت أقدام القوي ما لم يتخذ ركنًا يرتكن إليه أو يتحول من ضعفٍ إلى قوة، و إنهما من الضعف و الخنوع ما يجعلهما يرتجفان من ذِكْر ملك الأقيال، فلقيا ما لقيا، بيدك أو بيد غيرك"

"و ما خَبَرُكَ أنت؟ أراك سرت بركبٍ لقتال الملك"

"نعم، قد بلغنا أمر طالع الحجاز و سيره إلى قلب الحَضَر فيها و هدمه تماثيلهم، و نحن نرى الصواب أن نوحد كل جند اليمن تحت لواءٍ واحد ثم نسير إليه سيرة رجلٍ واحد على قلب واحد، و جزيرة العرب إما لنا أو نموت دون ذلك"

"و أنت لا ترى بأسًا في الموت دون ذلك"

"إن البأس في الذل لا في الموت"

أطرقت متفكرًا ما أسأله، و تركني هو في تفكري، ثم سألته: "إنك تعلم أن لا شأن لي في حربك مع ملك الأقيال و لا شأن لي بطالع الحجاز، كل ما أبغاه هو مكان قبر الأسود الرازي، فهل لك من علمٍ بمكانه؟"

ثم أطرق هو مفكرًا وقال: "لا علم لي، لكن أحسب أن أخانا ذامقطع يعلمه"

"سمعت عبدإيل يذكره و بينهما تجارة"

"إن له بيوتات على ساحل المخا غربًا"

ثم قوطع حديثنا بحاجب كهر يدخل علينا: "كتابٌ من معسكر ملك الأقيال!"

فقام كهر و فض الكتاب و قرأ فيه: "من ملك الأقيال إلى القيل كهر بن الأسود الرازي، فإنا نعلم أن شهاب عندك في خيمك، و إنك إن لا تسلمه الليلة لنا فإنا نفض الهدنة و نُغِيرُ عليك بخيلنا"

ثم لما طوى كهر الكتاب و التفت إلي، قمت أنا و حللت وثاق الكنز عن ظهري و قلت: "أأتمنك على هذا؟"

قال: "و ما هذا؟ أسيفٌ من ذهب؟"

"ليس أي سيف، بل الكنز الذي كان يذكره كيان، و إني سائر إلى ملك الأقيال فناظرٌ ما يريد و راجعٌ إليك، فهل تحفظ الأمانة؟"

"نعم، إني صالحت الملك على أن لا قتال حتى ينقشع الشهر الحرام، و المدد لم يصل بعد، فإن أغار علينا الليلة فلا صريخ لنا و لا منقذ.....إني أحفظ لك أمانتك ما استطعت، فانطلق آمنًا و عد سالمًا"

ثم بعد أن سلمته الكنز، انطلقت مع الرسول الذي أرسله الملك إلى معسكره.

# 9.براءة

عَدَدْتُ السلاسل و الأغلال التي وضعها جند الملك علي و هم يحذرون، فوجدتها أزيد من عشرين، و نزعوا مني لباسي و غطاء وجهي، فما رأيتُ جبناء من رؤيتهم وجهي كما رأيتُ منهم و هم يربطون ذراعي إلى سنام الخيمة.

انتظرتُ جَلْدًا، أو حجارةً من نار تكوي ظهري، أو حتى أُخْرَجُ إلى الرمضاء...

و لكني تُرِكْتُ ثلاثة أيام بلا طعامٍ أو شراب، يسألني الملك كل يوم "أين الكنز؟" فأجيبه أنه لدى كهر.

ثم في اليوم الثالث كلمني ملك الأقيال من خلف ظهري دون أن أراه: "أسلم نفسك يا شهاب و سلمها الهلاك، فإني آخذ الكنز لا محالة، و لكن أريدك أنت من يسلمني إياه، بحق نعمتي عليك، بتركك تصول و تجول كما تشاء في الفيافي و البلاد"

فقلت: "إن شئت، فاذهب و خذه من كهر، و إلا، فلا إني أجد لذةً و متعةً في إغاظتك"

فأجاب: "ما استفادتك من عنادك؟ ألم أمنحك سببًا للحياة؟ أسمى من مسعاك التعيس في نبش قبر أبيك، أسلم نفسك هلاكها، فإني لا أريد قتلك، و لكن إن لم تنزل على طاعتي، فلا مناص من أن تهلك"

"و ما إبقاؤك لي حيًّا؟ كلانا يعلم ما تخشاه و ما أنت غير قادر عليه و ما تخشى وقوعه، و لكني أقول لك، أن أيًّا ما تخشاه فإنه واقعٌ لا محالة"

"إني أرى ما في قلبك و خاطرك يا شهاب، إنك لا تخشى الموت، إنك تكره الموت و أنت لم تحقق مسعاك، فيدور بين العرب قصصك، عن فتى خرج يريد

شيئًا فغرق في سراب، مثلك كمثل امرؤ القيس لا كسيف بن ذي يزن.....سوف أغزو معسكر كهر آخر الشهر الحرام، و ما أنت فيه إلا عذابًا تعذبه نفسك بيدك، فلا نزلتَ على أمري و لا اقتديتَ بتوجيهي، فلا كيان قتلت و لا الكنز جلبت و لا من أخوتك أقنعت"

لم أقدر في نفسي على إنكار مقولته، فرغم أن الأسود قد صَبَّرَ جسدي فأنا أصبر على الجوع أشد من الجِمَال، و لكن العطش لا مهرب منه، و قد انْقَضَتْ ثلاثة أيام، ولو أتى علي اليوم الرابع لأمسيتُ ليلتها في حفرة، و أنا لم أخرج من عدن إلا لهذا الذي في بالي من ايجاد قبر الأسود، و لا أبغي في الدنيا سوى ذلك.

ثم أتى الملك أحد رجالاته: "مولاي، ما نصنع بالراهب في صومعته؟"

سكت الملك، و كأنه علم أني علمتُ من يقصد الرجل و ينتظر ردي، و قد أصاب، فإن رجلًا بريئًا كالسموأل ليس من العدل و الإنصاف دخوله في معمعة أبناء الأسود و ما أشد كرهي لذلك.

فنطقتُ أوحي استسلامي: "كفى! إني آتيك بالكنز و رأس كيان، فخلِّ سبيلي"

"عظيم....اشرب"

فكَّ تابع الملك القيود عني، وقَرَّبَ إليَّ قدح ماء، فاستصغرتُ في نفسي هذا القدح ما يصنع في عطش ثلاثة أيام، غير أني ما إن ارتشفتُ رشفةً حتى ارتويتُ و ذهب عني كل ما أجد من عطش، و وجدتني أشرب ما بقي في القدح لاهثًا دون أن أشعر، و ذهب عني ما أجد من تعب و سقم، و رُدَّتْ لي عافيتي و قوتي في رَدَّة طرف.

ثم التفتُّ، فرأيتُ الملك في صورته أمامي، قصير نحيل بكثير ثياب لا يُرى منها وجهه، إنما يُسمع من وراءها صوته الجهوري، الذي عرف و قرأ ما يقوله وجهي.

"سترى يا شهاب أن في الطاعة ما ليس في العصيان، و أن ثواب من يطيعني كبير، و كذا عقاب من عصاني"

ثم أمرني بالخروج فخرجت فأعمتني للحظةٍ الشمس ببريقها، ثم سار أمامي حتى دخل فسطاطه و دخلتُ خلفه و شعرت باثنين من جنده غلاظ وقفا على الباب.

ثم إنه جلس على سريره: "شهاب ابن الاسود الرازي، خيرٌ من خير رجالي، يعود إلى جادة الصواب"

فرددت: "إنه لمن السخرية أنك بكل هذه القوة و المنعة و لم تقدر على أن تأتِ برأس رجلٍ واحد، ما الذي أملكه و لا يملكه ملكٌ مثلك، بدأتُ أرى أن الخطب فيك لا في جندك، قد يرى المرء أنك قادر على حرق الأخضر و الرطب و اليابس في اليمن و لكن لا تفعل، و يرى أنك تنزل طالع الحجاز على أمرك و لكنك لا تجرؤ، ليست الأمور على ما تبدو عليه عند الرائي لشأنك"

" كلا إني على ذلك لقديرٌ، إن اليمن في يدي باطنًا، تجارتها و قبائلها، و لا يبقى لي إلا ظاهرها ما أشاء"

"أو أنك تخاف أمرًا، أليس الشك مباحٌ في قولك أنك تملك مقادير قبائل العرب في يدك؟ قد رأيتُ ما رجالك هم عليه"

"أنا ملك الأقيال، لي عينٌ خلف كل باب، و أُذُنٌ وراء كل جدار، و درهم داخل كل صرة، سلطاني لا حد له في جزيرة العرب، أنا الظل الذي يسير خلف كل ملك، و اليد التي تبطش في كل جيش، رجالي لا يعصون لي أمرًا و لا يردون لي طرفًا"

"و ماذا إذا قلت لأتباعك أنهم يعبدون امرأة؟ أكانوا يتبعونك؟"

"سترى أن الأمر أبعد من ذلك، رجالي على قلبٍ واحد على طاعتي، و هم يعرفون فضلي عليهم، فلا ترجو أمرًا أنت غير بالغه.....كن على وعدك الذي وعدت، و ائتنِ بالكنز و برأس كيان و بإذعان من بقي من أبناء الأسود أو رؤوسهم، إلا تفعل يكن هوانٌ و صَغَارٌ لليمنيين أو مذبحة"

ثم أشار بيده فأتيت فرسي سيناء و عليها متاعي كله خارج فسطاطه، ففهمت أنه يأمرني بالرحيل فورًا، غير أنه ما إن يممت وجهي تجاهها قال الملك: "أذكر هذا يا شهاب، أنت مُلْكي، حياتك كلها لي، منذ أخرجتك من الوادي و حتى أرجعتُ لكَ عافيتك، ستكون دائمًا غريب الجنوب، ملاكي الذي أُرسل به الموت على أعدائي"

**********

بعدما وَلَّيْتُ دبري خيمة الملك، و لما رأيتُ رأس الوادي المؤدي إلى صومعة الراهب ابن نبيل قد سُدْ، و خَشْيَتي أن يكون بين أيديهم فيقتلوه أو يعذبوه إن اقتحمتهم، عَرَّجْتُ خِطَام سيناء نحو معسكر كهر و قصصتُ عليه القصص حين لقيته، فسألني عما وراء الكنز من خبر، فأخبرته ما علمته من كيان بشأنه، و لو أن أحدًا قال لي علام إخبارك كهر بشأن الكنز، لقلت إنه لو أحدٌ طلب مني الكنز لسلمته إياه و لا أبالي.

فصمت كهر ثم قال: "قد قال لي أبونا الأسود ذات مرةٍ إنا من نسل من نجا من قوم عاد، الذين قهروا أهل الأرض يومًا فنزل بهم غضبٌ من السماء و صاعقة لم تبقِ لهم أثرًا، و ما بقي إلا قليل يتلون نبأهم لمن جاء بعدهم، و لعل الكنز هو برهانٌ مبصرٌ لمن صَدَّقَ بهذه الأساطير"

فقلت: "إذًا ما أمر كيان و الكنز إلا لأنه يريد استرداد ذلك المجد التليد، وكلٌّ من كيان و الأسود و الملك أفاقه أمر طالع الحجاز، غير أن كلًّا منهم سلك سبيلًا غير صاحبه"

"فما ترى؟"

"لا أرى إلا أن تتركوني و أمري، فلو قُلِبَتْ جزيرة العرب قيعانًا و حيتانًا ما هَزَّ فِيَّ شُعَيْرَة"

"أ إنك سائرٌ إذًا إلى بيوتات ذي مقطع.....فإن كان لابد، فخذ الكنز معك و اعطه ذي مقطع أو كيان و قل لأيٍّ منهما أن يأتيني، فلو كنتَ صادقًا ما همك بقاء كيان أو الملك"

و أعطاني السيف، فعلقته على ظهري، ثم ارتقيت فرسي و انطلقت غربًا نحو المخا.

**********

بضعة أيام لم أحسبها في طريقي إلى المخا، و رأيت إلى جانب المدينة خرائب صفراء و حمراء، فراودتني نفسي أن بها ما أريد، و لما أتيتها و طُفْتُ في طرقاتها، رأيت رجلين قضيا على سلم ينزل أسفل دير.

"أظهر نفسك يا كيان" ناديت لما عرفت أن هذا من عمل يده.

"هنا يا شهاب، إنزل هنا"

تتبعت صوت كيان نزولًا حتى وجدته يقف على مقامٍ منقوشٌ فيه شكل هلال تتوزع فوقه عدة جواهر و فيه كتابةٌ بالمسند لم أكلف نفسي قراءتها، و بجِذاء كيان رجلٌ له ذات وجه أبناء الأسود فعرفت أنه أحدهم.

"أنا ذومقطع بن الأسود الرازي، مرحبًا بقدومك يا شهاب" عَرَّفَ الأخ نفسه، رأيت في وجهه ندبةً ليست من جرحٍ صغير، و بدا أنها من ضربة سيف بيدٍ غليظة، و صافحته و صافحني، و شد على يدي كأنما يريد كَسْرَهَا أو يرى قوتها، فأظهرت له في تلك المصافحة ما أنا عليه حتى خَلَّاها.

ثم التَفَتُّ إلى كيان، الذي قال: "هنا يا شهاب، السر وراء سلالتنا و إرثنا، و السر وراء عودة جزيرة العرب إلى قبضة اليمن، إن ثِقَلَ لقائنا هنا و قوة القدر مما لا يدركه غير ذي لُبٍّ رزين"

فأجبت: "إن شئتَ يا كيان، أعطيتك الكنز الذي معي، لا آبه بصراعكما أنت و الملك و لا أين تذهب اليمن و جزيرة العرب، إن سبيلي غير سبيلكما، و سأسلكه لا يوقفني شيء"

فقال: "لو كان الأمر هينًا كما تقول"

قلت: "هو هين، لأن لا إيمان لي بكم"

قال: "لا تؤمِنَنَّ بي يا شهاب و لا بالملك، اعقل أن الأمر ليس بشرطٍ أن يأتي على يد أحدٍ منا، ولكنه سيأتي بأيٍّ منا، مَثَلُ ذلك كَمَثَلِ أرضٍ أصابتها السماء فَلَمْ تَدْرِ الأرض أين تُنْبِتْ و لكن منها ما نَبَتَ و منها لم تُنْبِتْ فاغْتَزَّتْ بما نَبَتَ و كلها سُقِي، إن مُلْكَ إرم و عاد قد زال، و لكن، ما وجودنا هنا؟ ما وجودنا أنا و أنت و إخوتك هنا؟ ما الذي أوصل كهانة الكاهن إلى الأسود؟ و الجواب هنا في هذه الحفرة على هذا المقام"

ثم أخرج كيان من جعبته سيفًا ذهبيًّا هو أخو السيف الذهبي المسمى الكنز الذي لدي و أراني إياه، أضاءت له عيناي من دهشتي لرؤيته.

"سبعة أسيافٍ صَنَعَتْها عاد و فَرَّقَتْها في معابد متفرقة في اليمن، كل سيف إن حَمَلَهُ فارس فيقدر أن يغلب به جيشًا، لكن كي لا يستأثر أحدٌ بها، فقد ألحقوا مع كل سيفٍ مفتاح لا يخرج من غمده إلا به"

ثم الْتَفَتُّ إلى ذي مقطع لأرى ما يرى فيم يسمع فقال: "إن عمنا كيان أَحَقُّ بأن يُتَّبَع و الحق معه، و ليس من امرئ أجدر من أن يُتَّبَع إلا القوي الشديد، لم أقدر عليه أنا و خيرة رجالي و البرهان ما تراه في وجهي، فاسمعه تَنْجُ يا شهاب"

و أكمل كيان قصصه: "مذ أسمعني والدك كهانة الكاهن عن طالع الحجاز، عالمًا بإرثنا نحن أبناء قوم عاد من بقي منهم، سلك هو فجًّا و أنا سلكتُ فجًا فجيء بي إلى العِلْم بالكنز الذي تركه أسلافنا، و لم يبقَ من تلك السبعة إلا اثنين حين تركتك تأخذ واحدًا و آخر جلبه لي خواصي من مدائن ثمود في الحِجْر، يهأمن و يهنعم، ما أسموه أسلاف اليمنيين على ذلكما السيفين و تسمى به بعض ملوكهم، و مدفن المفاتيح هذا دفنه الملك كرب إيل وتر ثم بنى عليه الملك ذمار علي يهبر، كله خشية أن يقع هذا الكنز في يد من لا حق له به"

أخذ ذومقطع السيف من يدي و مده لكيان، الذي أخذ جوهرةً من الجواهر في المقام و وضعها في رأس الغمد، فخرج صوتٌ كالنقر من ذات السيف كأنما ممسوس، و صر صريرًا، ثم كقفل انفتح خَرَجَتْ ذبابة السيف و لها طنين كطنين النحل.

"إليك عني يا كيان" رمقته بعيني.

و لكنه أكمل: "و رغم أن التاريخ و العقل لا يقبل بملكين لمملكة واحدة، قد بقي سيفان من هذه السيوف المحرمة، و ما أراها إلا كُتِبَتْ في ألواح الأقدار لنا"

ثم إني رفعت صوتي: "أقول لك يا كيان، لا تقربني"

و لكنه كان يقترب مع كل كلمة تخرج من فيه: "حتى استقرت في أيدينا كما شاءت تلك الأقدار، بهذه الأسياف، نسترد مجدنا.....خذه و لا تخف"

و مد لي كيان السيف، فرأيت عليه كذلك كتابة مسندية، و رأيتني أُجْذَبُ إلى مَسْكِ السيف و إلى أَخْذِهِ، كأني أُدْفَعُ دفعًا لذلك، و أمسكته، فأحسست كأنما يدي صارت حديدًا أو حجارة، كأني ألبس درعًا و ما لبست، و أحسست إن ما هذا بسيفٍ مما تمسكه العرب، إن هذا إلا موتٌ مرعب في سبيكة.

و خلال الهاجس الذي أتاني من مسكي للسيف، وجهته تجاه كيان: "إن كان ما تقول حقًا، فالحق أن ترتعد فرائصك مني"

و رجع هو متقيًا سِنَّة السيف و تراجع ذومقطع كذلك فزعًا و قال: "الحذر يا شهاب، فإن الذي بين يديك يدق الصخر و يذيب العظم و يفلق الجبل"

فقلت: "ما ظنكما بمقتولين على يد من لا يخشى القتل و لا يخشى القتل"

ثم قال كيان بعد أن بلغ الطرف البعيد من الحجرة متراجعًا، يبلع ريق الحياة في حنجرته: "هو كما تقول يا شهاب، إنما وضعت ساعتي بين يديك، فإن شئت فافعل"

ثم.....اهتزت الأرض و تزلزلت و ارتجت من تحت أقدامنا و من فوقنا، فصحت: "أسحرٌ هذا؟! أهذا من صنعك؟!"

"ليس مني، بل منك" أجاب كيان في هدوءٍ غريب.

ثم أُنْزِلنا على أرجلنا، و ماجت الأرض بنا كما تموج الفلك في البحور و أوشك السقف أن يقع علينا، بل تساقطت أجزاءٌ منه، و سقطت صخرة سدت المخرج، و حوصرنا عندها فهي خلفنا و ردمٌ وشيكٌ من أمامنا.

قلت: "ما هذا الذي يحصل؟!"

فقال كيان: "إن الذي أتانا بهذا كله قد حرص على أن لا يلتقي سيفان عظيمان ملكيان ببعضهما، و ما يحصل هو عاقبة ذلك، و لا سبيل للخلاص إلا أن يقتل أحد الملكين صاحبه أو يفيء بالسيف بعيدًا في الفيافي، اقتلني يا شهاب و ستكون حينها عبدًا لمشيئة الملك كالنعل في قدمه"

فصاح ذومقطع: "أي جنونٍ هذا؟!"

و لكن ثبت كيان: "انظر في نفسك يا شهاب، أملوكٌ نحن أم أتباعٌ للملوك؟ هذه الساعة تملك مصيرك و قدرك بين يديك و انظر أأنت السيد أم هم؟"

فرفعت السيف، فاتقى كيان بيديه، و أنا في تلك الحال بين نارين، كيان تحت رحمتي، أقتله و ينتهي وابل ما أصابني و أتحرر سعيًا لهدفي و أشفي صدري منه، و لكن إن فعلت نفذت مشيئة الملك و رمال و تم لها ما أرادت على كراهية عندي.

فتحريت أن لا أعطي الدنية في أمري، إني قاتل كيان، و لكن في الساعة و الزمان اللذين أقولهما، لا ما يقوله هو و لا الملك و رمال، فَضَرَبْتُ بالسيف الصخرة، فَانْفَلَقَتْ كقشرة البيضة، و علا صوتٌ كهزيم الرعد و دخل بعده ضوء النهار و خرجنا سالمين متنفسين الصعداء.

"بئس النَجِيَّة" سخر كيان.

ثم أخرج السيف الذهبي الذي كان معه و انتزع من وسطه الجوهرة التي كانت به و أدخلها في ثيابه، فسكنت الأرض من تحتنا و هدأت.

"أي شيءٍ هذا الذي بين أيدينا؟" سألته.

فأجاب: "واحدية، لا شيخين في ذات القبيلة، و لا ملكين في ذات القصر، و ما من إلهين في ذات السماء، بيدٍ واحدة و كنزٍ واحد، سيعود حكم جزيرة العرب

إلى اليمنيين، و الفضل في ذاك أن قَدَرْتَ و عززت نفسك، و سيعود الحق لأصحابه"

"إلى أبناء الأسود و بني عاد و إرم، أهذا ما أردتني أن أبلغه؟ أن أجعلك أنت الملك على العرب؟ إني لستُ كماك و لا كما رمال، عزة نفسي تأنفني عما تريدون، و ما أنا بتابعٍ لك"

"ليكن يا شهاب، لا تتبعن إلا نفسك، و لا يكن عليك آمر إلا ذاتك، فامض و لا تبالي و كن حريًّا بالكرم الذي بين جنبيك"

"كلام لو أنه قيل آنفًا"

"الكلام سهل يسير يا شهاب، و اذكر، قد يُسَيّرك الملك، و لكن مصيرك هو الذي بين يديك، و الطريق الذي تسلكه، هو ما سلكه قلبك و عقلك، و توشك أن تبلغه"

و مضى كيان في طريقه....

# 10.قلوب

تَرَكَتْنِي الحادثة تعبًا سقيمًا، و اضّطرتني لأن أترك كيان يمضي حال سبيله، فجاء ذومقطع بفرسه و بفرسي سيناء التي ما إن رأيتُها حَمَدْتُها و شَكَرْتُها أنها لم تَنْفُر من زلزلة الأرض، فأصعدني إياها و أمرني أن أمشي معه لبيوتات قومه، و بينا نمشي إذ سأل: "إني سائلك عن خصلتين"

فقلت: "و أنا سائلك عن خصلتين، فأجبني إليهما بعد أن أجيبك"

"هل قال لك أبونا أنه يعهد الأمر إلى أحدٍ منا من بعده؟"

"ما دريتُ عن أي أمر و لا عنكم قبل خروجي من عدن"

"فمن ترى من أبناء الأسود أجدر أن يلي الأمر؟"

"أي أمر؟ حُكْم جزيرة العرب و اليمن؟ لفتيل التمر أهون عندي منهما"

"أرى أنك لا تعي ثِقَلَ الدماء التي تجري في عروقك، أرأيتَ لو أوتي أحدٌ مفاتيح المدائن و رُومِيَّة ثم يَرُدُّها أذو عقلٍ هو؟"

"يا هذا، أتعلم أين دُفِنَ الأسود؟"

"و ما شأنك بأين دُفِن؟"

"أجبني كما أجبتُك"

"لا علم لي"

"فَدُلَّني على من يعلم"

"نَصِلُ أُجيبك"

و لما بلغنا بيوتاته أنزلني منزلًا، و رأيتُنِي أرمي رأسي على الفراش من شدة النَصَبْ، و لم أُفِقْ إلا على جوعٍ ضرب جنبي كفحيح الحية، و رغم أني أطيق الجوع إلا أني تعجبته لأني ما دريت كم لَبِثْت، فلما رأيتُ نفسي ما بي من بأس و رُدَّتْ عليّ عافيتي، خرجتُ من الدار فإذا بوسط البلد القدور تُنْصَبْ و الموائد تُنْشَبْ و عليها من كل لونٍ من الأكول و على رأسها ذي مقطع، فلما رآني دعاني، و أتيته و سألته: "كم لبثت؟"

قال: "لبثتَ يومين بليلتين"

قلت: "فذاك الجوع الذي ضربني"

"فَتَلْ من هذا الذي أمامك ما شِئْتَ ثم ائتِ داري"

فلما فرغتُ من طعامي أتيتُ داره و وجدته على بابها مجتئبًا لباس حربه، ثم إنه قال: "إنك قد كنتَ سألتني عن قبر أبينا، فإني لا أعلمه، و لكن أخونا حَزَنْ يعلم مكانه"

فسألتُه: "و أين أجد حَزَنْ؟"

"حَبَسَهُ أخونا كهر في غارٍ يقال له غار حَزَنْ، إن سرت مسيرة سبعة أيام إلى الصحراء قريب قرناو"

"و ما حبسه له؟"

"إن حَزَنَ و من معه يقطعون الطريق و يرهبون المسافر و يأخذون ما وقعت عليه أيديهم، فاستغاث بعض أحياء العرب بكهر، و على قوة بدن حَزَن فقد قهره كهر و فعل به ما فعل"

رأيتُ في وجه ذي مقطع كلامًا غير الذي أراد، فسألته: "لك صورة مرتاب، فهل لك من طلب؟"

فقال: "نعم، أن تغالبني و أغالبك على الكنز"

"إن شئتَ، أعطيتك إياه"

"ثكلتك ذات بعدان! و يطير النبأ بين العرب أني سرقته؟ هيهات! حتى يكون معلومًا بين العرب من هو شيخ شيوخ أبناء الأسود، من ينفذ عهد أبينا، من يكون له السمع و الطاعة في قبائل اليمن و ما وراءها، و إنه ليسوءني أنت يا من لستَ بشيخٍ على أحد أن تحوز كنز الكنوز"

غريب مجنون الجنوب - حسين طلال

"إني لا آبه بعهد أبيك و لا بمشيخة إخوتك، لكن إن ظننتَ أنك تغلبني فإني أراك في بُعدٍ و ضلال"

"سنرى أَحَرِيٌّ بك حَمْلُ الكنز و مجده أم مُهْلِكَ نفسك، تعال"

و مشيتُ معه إلى ميدانٍ يرمي فيه رجاله النبل على جذوع النخل اتخذوها غَرَضًا، فأتى غلمانه بقوسٍ ما رأيت أطول و لا أعرض عظمًا و لا أكبر قلبًا، ثم نصبه أمامي و قال: "سنغالب بعضنا في غير واحدٍ من المغالبات، هذا القوس الذي رمى به سيف بن ذي يزن سهمه على قائد الأحباش مسروق بن أبرهة من مسافة وادٍ بينهما و هو على رأس جيشه يحمله أربعةٌ من رجاله و أصابه في وسط ناصيته على ياقوتة حمراء يضعها، و هذا القوس لا يقدر على جرِّ وتره أربعة رجالٍ مجتمعين"

فأَمَلَتُ رأسي و عَقَدْتُ ذراعي و أنا أرسل نظرةً إلى قوسه و نظرةً إليه، و سألت: "و ما تريد؟"

قال: "أرمي أنا و ترمي أنت، فمن كانت رميته أبعد كانت له الغلبة"

ثم أَخَذَ القوس من بين يدي غلمانه و رفعها، فرأيتُ العروق تبرز من ذراعيه و صدغه و علمتُ أنما هذا لقوسٌ رزين، و أتاه أحد غلمانه كذلك بسهمٍ أحسبه ثقيلًا ليس كباقي السهام، ثم التفت إلي و قال: "إن أبي علمني القوس و السيف، و الحربة و الترس، ما لم يُعَلِّمْهُ أحد من أخوتنا، و أنا أريك ثمرة ذلك"

و رمى بسهمه، فطار إلى أبعد ما تراه العين و استقر في قلب نخلة، ثم دفع بالقوس إلي، أحسست بأنه أثقل و أرزن مما سواه من الأقواس بحق، لكن ليس بالذي يجعل المرء يعرق و يرشح، امرؤٌ كمثلي، ثم إني قلت: "قل يا ذامقطع، كم كان أبوك يعلمك القوس و السهم؟"

فقال: "كم يعلمني؟ ما يكفي الرجل"

"أما إنه قَرَعَ رأسي بما لا يطيقه العماليق، من الفجر حتى الغسق، فأقول لك، إن هذا القوس الذي عَظَّمْتَ شأنه، لا يعدل أيًّا من الحجارة التي حَمَّلَني إياها الأسود"

و رميت بالسهم، فأصاب حيث ما أصاب سهم ذومقطع و اخترقه و اخترق النخلة و توارى عن الأبصار لبُعْد ما طار، و ارتسم على وجهه من العَجَبِ ما ارتسم.

قال: "كَرَّةٌ بِكَرَّة، و ليس لفرصة تأتي ثاني مرة"

ثم أُتي بحصانٍ أحمر، بل اثنين عليهما راكبان ملثمان، و قال: "أتقدر على أن تربط حصانًا شاميًّا أحمرًا جاريًا في جذع نخلة؟"

قلت: "أتقدر أنت؟"

فأشار بيده فانطلق الراكب بالحصان الأحمر، ما فارق بقعته إذ يجره ذومقطع من حبلٍ مربوطٍ بسرجه، حتى ربطه في نخلة.

ثم قال: "افعل كفعلي"

فقلت: "بل فك حصانك من النخلة و ائتنِ بحبليهما"

فأتاني غلمانه بالحبلين، و أشرت فانطلق الحصانان كلٌّ في جهة يمنة و يسرة، و ما فتئا يحفران مكانهما و أنا أمنعهما من المضي كلٌّ بذراع، حتى ربطتهما ببعضهما، ثم رأيت ذامقطع تنتفخ أوداجه.

فقال: "لا، إن غلبتني في التالية فإني لا أواجهك بعدها أبدًا"

فقادني حتى بئرٍ عميقة قريبة و قال: "إن هذه بئرٌ قعرها نفطٌ أسود، إن استخرجت الدلو المرمي فيها فسأشهد لك بقوتك"

و ما إن أطللتُ على عتبة البئر حتى قذفني فيها، ثم أمر غلمانه فسدوا فمها بجلمودٍ عظيم، و لم يدرِ ذومقطع أني أسمعه يضحك هو و غلمانه و يتشدق بالكنز، لم يدرِ ذومقطع أن ما علمه إياه الأسود لم يكن من معشار ما علمني إياه، لم يدرِ ذو مقطع أنه حكم على نفسه بالهلاك على يد من هو أقوى منه، و بينا أنا في ظلمة البئر تفكرتُ في أمره، و حرت فيما إذا كان تلقى علمًا عن الأسود أم لا، ما جعلني الأسود أتعلمه جعل ما عَمِلْتُهُ مع ذومقطع كلعب الصِبْيَة، و ما عجزتُ أن أتسلق صعودًا حتى أزحتُ الجلمود و خرجت.

ذلك الوجه الذي رأيته في ذي مقطع و هو يرتعد كالفأرة لا يساويه ذهب كسرى إن أُهْدِيَ لي، ثم نظرت إليه و هو يتصبب عرقًا لا يدر ما يقول، "ما حملك على ما فعلت؟" هو ما كنت لأقوله، غير أنه جثا و ضرب الأرض يصيح.

"هَزُلَتْ! اللعنة على الأسود! اللعنة على كيان! اللعنة عليك يا شهاب أنت و أخوتك!"

"ما بالك تثغي؟" سألته.

فأجاب: "إن كيان قد وعدني أمر اليمن و العرب إن قَتَلْتُك و حزت الكنز، بئس النصيحة! بئس الرحم!"

"أي منافق، حرضك كيان على قتلي؟"

"أوما عَلِمْتْ؟ قد أَمَرَ كيان كل أبناء الأسود أن يقتل بعضهم البعض من لا يتبعه"

أسررتُ في نفسي تعجبي من أمر كيان، أراد لي أن أحوز الكنز العتيق في يدي ثم عَلَّم أخوتي على قتل أنفسهم و قتلي؟ ما فهمت ما يريد، و أبدًا ذلك لعسير

القبول و الوعي، ثم انتزعت الكنز من يد هذا الذي أمامي و قلت: "بل ثكلتك أمك و فقدتك يا ذومقطع، أجب سؤالي تنجو" و أخرجت سيف الكنز من غمده فكان له ضوءٌ كشمسٍ نَزَلَتْ بيننا.

سألته: "أتخليني و شأني و لا تسعى خلفي؟"

فقام و هو يرجف: "انظر يا أخي، أرأيتَ لو وضعتَ يدك في يدي لعلونا على كيان و بقية أبناء الأسود، ف...."

"أخطأت"

فهبطتُ بالسيف على رأسه، لكن، لم ينثر دمًا، بل استحال ترابًا في ساعته، و لما رأى أتباعه ذلك انطلقوا فزعين إلى قومهم و هم يصرخون "النجاة النجاة" و لم أعذلهم في ذلك، فرؤية بشرٍ يستحيل رملًا و ترابًا في مكانه تطير بلبابة عقل أي انسان.

لم يبقَ منه شحمٌ و لا عظم و أنا أقلب في تلك التربة، لم أكن لأغفر ثم أتركه يطعنني في ظهري كرةً أخرى، قد قيل أن من يُكْرِمُ لئيمًا لن تَمُر ليلته حتى يريه من لؤمه، ثم نظرتُ إلى سيف الكنز و أنا أعيده في غمده، استكملت أواصر الاعتقاد عندي أن لا يأتي بصنيعة هذا السلاح بشر، و دار في خاطري أن ماذا لو كانت إحدى آلهة البشر حق و هي من صنعت هذا الكنز؟ و عن الكنز الآخر الذي مع كيان أهو ذات الذي معي؟ لقد تكلم عن هذا الكنز كل من رأيته، و أرى أنهم أوفوه حقه.

و لكن ليس الكنز ما أريد، لم يبق لي من أبناء الأسود أسأله عن قبره إلا حَزَنْ، و على نعت ذومقطع، عدت إلى سيناء و امتطيتها إلى وجهتي.

# 11.شعاع

غار حَزَنْ....

تلال و جبال ترى بينها بشرًا يهربون لرؤية غريب، فبحثت حتى أتيت على غارٍ حول بابه يقعد نساءٌ و ولدان عليهم الفقر و الفاقة، فأشرت أن لا يراعوا، ثم ناديت: "أين شيخكم حزن؟ فليظهر نفسه"

فالتفتت النسوة بعضها إلى بعض و عليهم القلق، و نادى منادٍ من داخل الغار: "ألا تراني يا أخي؟"

فدخلت الغاز، فإذا أنا برجل عظيم الجثة لا يُرى وجهه و لا جلده من كثرة القيود و السلاسل التي قُيِّد بها، و كثير منها ربط بالصخور الكبيرة و الحجارة الثقيلة، ثم قال: "ألا تعرف أخاك يا شهاب؟"

"حَزَنْ؟"

أجاب من خلف الحديد: "نعم، فكما عرفتك، جدير بك معرفتي، ليس شجاعٌ من أبناء الأسود سواي و أنت و كهر، و ما كان لمن تركني منسيًّا أن يرجع ليفك قيدي، غير أن حالي ليس بأحسن من أحوال العرب في معيشتهم"

قلت: "إنما أتيتُ أبغي جوابًا و ماضٍ في سبيلي و تاركك و شأنك"

"ليس من أحدٍ في رأسه مثقال ذرةٍ من عقل إلا و يبتغي جوابًا، و ما أقل هؤلاء بين العرب في هذا الزمان، زمانُ غابٍ و دغلٍ يأكلون فيه بعضهم بعضًا كما تأكل الأسود الظباء"

"إنما قَيَّدَكَ كهر لما سفكتَ الدماء و أفسدتَ في الأرض و البلاد و ما تركتَ أهلها يحيون"

"ما أفعل ذلك إلا اقتداءً بسيرة أبينا و بما تفعله العرب، فإنما أنا منهم، هذه معيشتنا و عليها نموت و نحيا، لا أسعى خلف كهانة عرافين و مشعوذين كما جرى مع أبينا و عمنا، لن تقوم في اليمن بلادٌ و لا ممالك و لن يملك عليها أحد، و لن تبرح حالها حتى يوم لا تطلع فيه الشمس"

"دعنا من هذا، أجب سؤالي"

"سل"

"أين قبر الأسود الرازي؟"

"حل وثاقي أخبرك"

إن صَدَقَ على غير سيرة من سبقوه، فلا آبه ما يفعل بعدما أفك وثاقه، و فعلت، فقام عن قيده و حديده، فما رأيت أحدًا أشبه من أبناء الأسود بكيان منه.

ثم قال: "أي طعمٍ للحرية؟ و ما ثمنها؟ الشكر لك يا أخي"

فقلت: "ليكن بديل شكرك أن تحفظ كلمتك و تجيبني إلى ما أريد"

"على ساحلٍ قريبٍ من قلب الحجاز يقال له جدة، قد كنتُ شاهدًا على دفنه مع عمنا كيان"

أحسستُ كأنما أصابتني صاعقة من السماء ثم قَذَفَتْ بي الريح في الحميم، أخيرًا أجابني رجلٌ إلى السؤال الذي أخرجني من عدن، و لم يبق إلا.....

"لم أشهد مقتله، و لكن علمتُ من عمنا كيان أنه مات متلهفًا بلوغ قلب الحجاز لأمر" أكمل حديثه.

قلت: "و أنت ذو حديثٍ و سمرٍ مع كيان؟"

قال: "نعم"

قلت: "و ما قال لك غير ذلك؟"

"قال إنك قاتلي إن لم أقتلك، ذلك أنك لن ترضى أن تكون معي بجانبي و لا ترضى أن تكمل معي سيرة أبينا"

"قد صدق، و أنا لم انس أن بينكما متشابهات من إفسادكما في الأرض و إهلاككما الحرث و النسل"

"لا تجعل لسانك يخوض في عمنا، فهو مُخَلِّصنا"

"مما يخلصنا؟"

"من أنفسنا"

ثم هبط بقبضته، و التي إن ما بَعَدْتُ عنها لجعلتني كالثريد، و أحسستُ كأنما الأرض دُكَّت منها، ففررتُ ليس فزعًا بل لاتخاذ المكان الأفضل لقتاله خارج الغار، و ما إن خرجتُ حتى ألقى حزن علي جلمودًا كأنما تل يطير، ففطنتُ للواجب فعله، فأخرجتُ سيف الكنز و ضربتُ بها الصخرة فانفلقَتْ اثنتين كل في جهة، و لم أشعر به إلا و هو خلف الصخرة يضرب كتفي فيسقط السيف من يدي، ثم ضربة تلتها شج لها رأسي حتى أدماه، و بينا على ذلك رأيت بعضًا من السلاسل مازالت على جسده، منها ما زال حول عنقه.

فهربتُ منه صعودًا إلى جبل قريب و لحقني، و كان على ضخامة جثته خفيف الحركة أوشك أن يقبض علي غير مرة، حتى إذا استويتُ على رأس الجبل، نظرته حتى أتى، ثم ألقيتُ نفسي و أمسكتُ بالسلسلة التي حول عنقه، و هوينا

أنا و هو إلى الأرض، فأما حَزَنْ، فقد اندقت عنقه و ما عادت به من حياة، و أما أنا، فرغم ما قد أعددت نفسي له، رأيتني أقوم كأن ما بي من بأس.

ليس وقت شكر الآلهة على بقائي في سلامة، نظرتُ فإذا وجوه النسوة اللاتي كن على باب الغار كمن ارتفعت غمة عنهن و أشرقت وجوههن، أعلى مقتل شيخهم حزن تتهلل أساريرهم؟

ثم سمعت صوت منادٍ: "الغوث الغوث! أغثنا يا شيخ شهاب!"

فالتفت فرأيت أحد خواص كهر مقبلًا لاهثًا رأسه يثعب دمًا مسود الوجه.

فابتدرته: "ويحك من فعل بك هذا؟!"

فاستغاث: "أغثنا يا شيخ شهاب! فليس لنا إلا أنت!"

فهززته: "انجز و أَجْمِل!"

فقال: "قد أتانا آتٍ لا أحسبه بإنسان، ما ترك فارسًا و لا خيلًا و لا إبلًا إلا قتلها، و لا خيمةً إلا أحرقها، و لا بناءً إلا هدمه، مهما اجتمع عليه من رجال و فرسان يسقطون كالذباب أمامه"

أرسلتُ الرجل، و تسمرتُ مكاني، إن هذا النعت لا يُنْعَتُ به إلا كيان، فتفكرتُ فيمن قتل، من معسكر كهر؟ من رجالات الملك؟ ثم صَعَدَتْ إلى بالي صورة نبيل ابن السموأل، ففار الدم في عروقي، و أقسمتُ أنه لئن آذاه أو قتله كيان فالآن حصحص حين دق عنق كيان و لا أوجل.

ثم بعد أن أعادت لي النسوة فرسي سيناء بعد حفظها عندهن، انطلقتُ من ساعتي على ظهرها عائدًا إلى معسكر كهر.....

# 12.ألوف

لَعِبَتْ رياح الشك و قلة اليقين بأشجار الفكر في رأسي، لم يكن في اعتقادي أن فردًا واحدًا يفعل ذلك كله، و فَتَحَتْ السماء ماءها علامةً على استحالة ما جرى، اختلط الماء بالدم و الرمل و الرماد، و لم يغسل المطر دخان حريق الخيام.....

لا صوت.....

لا حراك.....

موتٌ أسود ألقى بظله....

حَمَلَتْ الريح إليَّ صوته القائل "ويلٌ للخائبين" ما بقي انسان لا من رجال الملك و لا من معسكر كهر.....حتى الطير سقط من السماء من عَرْفِ الهلكات.....

ثم رأيتُها تجر الخطا حتى أتتني....في صورةٍ لا أحسب أن أحدًا رآها عليها من قبل.

"شهاب....." نادت بصوتٍ كسير.

فقلت: "ما أقول الآن؟ أ رمال؟ ملك الأقيال؟ أم انسان غير الذي أعرف؟"

قالت: "لا أقنعة و لا لثام بعد اليوم يا شهاب و لا جيش و لا رجال.....ما تراه هو موؤودةٌ وُئِدَتْ في حياتها مذ دخلها كيان"

"أبعدما سقط اسمك و اسم ملك الأقيال تستجدين عطفي؟ و من كان ليراك في قصرك يعتقد بأن أمر العرب بيدك و يقدر على أن يأتي برأس من شاء متى شاء.....و إنما أردتني كمملوك بعد منتك علي"

غريب مجنون الجنوب - حسين طلال

"لا أطلب منك العفو و لا العطف و لا المغفرة يا شهاب، إنما انظر حولك كيف أوصلتنا أنفتك و كبرياؤك إلى ما أتى علينا من خراب و قتل و دمار"

"أي شيءٍ فعلتُ حتى أتى هذا الدمار؟"

"أنتَ من ترك كيان و لم يقتله، و هذا جلب الشر على قومي و عشيرتي من الروم و جلبه الآن و سيجلبه على العرب جمعاء، كنتُ في قومي في رومية ابنة بطريقٍ عليم رشيد حكيم كريم، يحنو على البائس و يرحم المحتاج و يشهد له قومه بنبله و وقاره، و كان على سيرته من في قريتي، حتى إذا نزل علينا جريحٌ عربي فداويناه بما لنا من علمٍ في الدواء و الشفاء، و إنه حتى أشربه أبي من شرابٍ يطيل العمر و يصلح الجلد و يقوي البدن و يجعله لا يقهر، كالذي سقيتك إياه، ثم سمع حديثًا بين أبي و علية قومه عن إطلال نجم من الحجاز و أنه واجب السير إليه و الإذعان و التسليم له، فلم يألو حين سمع ذلك إلا و قتل من قومي من قتل و ما ترك منهم من أحد، و لولا أنه لم يرني لَمَا كنتُ هنا اليوم، ثم تبعته حتى اليمن، و لم أترك رجلًا قويًّا و لا عصابة إلا أغريتها بما معي من مال و ذهب حتى يقتلوه و لم يقدروا، و كان في كل مرةٍ يترك منظرًا كالذي تراه اليوم، و هو على هذا الحال منذ أربعين سنة، و لما علمتُ بأمرك، أشفقتُ أن يكون هلاك هذا الطاغية على يدك، غير أنك لا يهز فيك موت بريءٍ شعرة، و لا لكل جهدي لأجلك"

"إن حُجَّتُكِ لا يعيها ذو عقلٍ يا رمال، إن الذي يقتل في القوم هو كيان و هو الآثم ليس أنا حين تركته، فعندما قتل من قومك و قتل بعدها لم أكن حينها قد وُلِدْتُ حتى، و هذا الذي لم يتغير"

"طالما كيان يحيا بين ظهرانينا، فإن القتل و الموت في حراك لا يلبث، و أمر العرب في تباب"

"لا أظن أن أمر العرب و حياتهم تهمك، و لا حتى القصاص و الثأر لقومك، إنما مُلْكٌ قد زال و شيطانٌ يعيث في الأرض الفساد ليس تحت يديك و لا بأمرك، هذا ما يغيظك، أن ليس كيان برجلٍ يمكن أن يملكه شيخٌ أو جيشٌ أو ملك.....بل لا أقول يغيظك، إنما يخيفك أن لا تعلمين ما ينويه"

"إنما بث كيان السم في قلبك.....ارحل عني.....فلست أرجو منك خيرًا بعد اليوم"

ثم سمعتُ صوت خطوٍ يأتي من بعيد...تركتُ رمال تفر بينما استدرتُ لأرى القادم، فإذا هو كهر قد غسل المطر الدم عن درعه و رأسه.

فقال: "لا نجاة اليوم لك و لكيان ياشهاب"

فقلت: "كهر....أراك ذُقْتَ من يد كيان ما لم تحتسب"

"و أنت؟"

"قد فعل، و من الموت أحييت"

"قد هلك العرب، أزفت ساعة زوالهم من الدنيا، ذهب أمرهم، و انزاح كل رجاء بأن يكون لهم ذِكْرٌ بين الأمم"

"ما حملك على قول هذا؟ ألئن عمك هزمك في مبارزة؟"

"إن لم يهلك اليمن الفرس أهلكها الروم، و إن لم يهلكها الروم أهلكها طالع الحجاز، سوف يسود الخوف و الظلم و سيمسي أهل اليمن و العرب مملوكين لدى العجم"

"ما الفرق بينك و بين كيان يا كهر؟ كلاكما يسعى لأمر تَرْكُهُ أفضل و أسهل من المضي فيه"

"بل أنت ضعيف الرأي و لا كرامة لك، آخر أبناء الأسود، لا يجدر بسليل قوم جبارة أن يكون على ظهر الأرض يدنسها و هو يسعى لرفاتٍ قد رَمَّتْ فتاتاً"

"و ما تريد يا كهر؟"

"أنا أو أنت على ظهر الدنيا، فإن عشت، أخذت الكنز و جئت بالبشارة لأهل اليمن و العرب، و إلا.....فالموت ألذ من غالي النبيذ على ظمأ"

إن لكهر أنفة و كرامة وضعتُ لها اعتبارًا، فوضعتُ الكنز أرضًا و أخذتُ سيفًا من أحد القتلى و فعل هو، ثم انقضضنا بعضنا على بعض في قتال أَرْعَدَتْ له السماء و أَبْرَقَتْ.

و وضعتُ في بالي أن هذا هو الرجل الذي رَبَطَ حَزَنْ بيديه، الذي كان هو بنفسه جبارًا من الجبابرة، فلم آخذه على هونٍ و قاتلته و حياتي على كف، و رأيتُ من مهارة سيفٍ و صلابة بدنٍ ما لم أرَ في بقية أبناء الأسود، بل هو أشدهم قوة، و زادني يقينًا في ذلك الجراح التي كبدني إياها في جبيني و عضدي و ساقي، حتى سقط اللثام عن وجهي، و لم يرتعد لذلك بل زاده ذلك تصميمًا على قتلي.

الحق أقول، أني لم أعد أدري لِمَ أقاتل، لِمَ أسافر، لِمَ خرجت من عدن، لِمَ ارتحلت حول اليمن، لِمَ التقيت بأبناء الأسود....

ما هذا الذي في يدي؟

من هذا الذي أمامي؟

لماذا أنا هنا؟

من أين أتيت؟

أين أنا؟

من أنا؟

و في طرفة عين، انطبق سيف كهر داخل كتفي، و من قوة ساعد كهر عَلِقَ السيف في كتفي و ما قَدَرَ أن ينتزعه.....في طرفة عين، أدرك كهر أنه قد هلك و خسر، فأغمض عينيه، في طرفة العين تلك رأيتُ على وجهه من أمارات السكون والسلام ما لم أره في وجوه أخوتي، خوفٌ و تعلقٌ بالحياة هو ما رأيته عليهم، أما كهر، فكأنما أراد لطرفة العين هذه أن تطول و تدوم.

طرفة عينٍ هي ما كان لزاماً مني أن أرسل بيدي الأخرى سيفي ليستقر في قلبه، و سقط كهر...آخر من بقي من أبناء الأسود....من إخوتي.....

حَبَسَتْ السماء ماءها، لكن الدماء لم تُحْبَسْ عن كتفي، فدارت الدنيا في عيني.....و سَقَطْتُ على وجهي....

## 13.حماسة

أفقت.....

لكن ليس في المقبرة التي صنعها كيان.....

بل في بيت أعرفه و على صوت أعرفه.....

أفقتُ في بيت نبيل بن السموأل على صوته و هو يسعل و يتنحنح: "إن فَضْلُ فرسك عليكَ كَفَضْلِ الأم على ولدها، فلولاها ما جِئْتُ بك"

غريب مجنون الجنوب - حسين طلال

لم يعلم نبيل أني سعدت لرؤيته سالمًا معافى من أي أذى، لم يمسه جنون الموت الذي وقع آنفًا.....أو أنه علم...

فقلت ساخرًا: "ما أكثر ما يؤتى بي، فلو مداوٍ لكسب دنانير يبنى بها مصنعًا"

فضحك و قرب إلي طعامًا، و عجبتُ من أمر نفسي لما لم أجد ألمًا لا في كتفي و لا في غيره، فلما رآني هكذا سأل.

"من يرى جرحك الآن لا يظن أنه أثر سيفٍ عميق"

فقلت: "لعله أثر ما سقتني تلك الشيطانة"

"أي شيطانة؟ إن الشياطين مهمومون مشغولون"

"و ما شغلهم؟"

"الحجاز"

"أويهم الشياطين أمر طالع الحجاز؟ لا عجب، فأمره قد أهم كل كبير في جزيرة العرب"

لم يجبني نبيل، و رأيته يضحك بينه و بين نفسه، فسألته عما يضحكه، فأجاب...

"أرأيت من كان في فُلْكٍ و دارت به الريح، أيهمه لو ابتل؟"

"بل النجاة"

"فذلك ما جرى للقوم الذين استخرجتك من بينهم، فضلوا الجفاف على النجاة"

غرائب المجنون الجنوب - حسين طلال

ثم قام، و رأيته يعرج عرجًا لم أره يعرجه من قبل، و رأيت على سواده كأنما رجله بها داء الأكال الموات، و أتاني بماء: "اشرب و امكث عندي حتى ترد عافيتك"

ففعلت، و مكثتُ عند الرجل ثلاثة أيام لا يكلمني فيها، يأتيني بالطعام و الشراب و يرى حاجتي، ظننته سيسأل عما ورائي، غير أنه لم يفعل، إنما أسمعه في جوف الليل و قبل الفجر يردد كلامًا ما فهمته لأني لم أسمع مثله من قبل.

حتى شعشع فجر اليوم الثالث و كلمته أنا: "ما الكلام الذي تقوله في جوف الليل و قبل الفجر؟"

فضحك و قال: "و ما تصنع بجوابي؟"

"ما أصنع به شيئًا، إنما حرت في كيف أرد لك معروفك"

"ليس أنت من يرد المعروف، إنما أرجوه ممن أكلمه في جوف الليل و قبل الفجر"

فسكتُّ، فَمَرَّتْ ساعة، فسألته: "مالك لم تسألني عما ورائي؟"

فقال: "و ما أصنع بجوابك؟ إن كلٌّ ميسر لما خُلِقَ له، إنه لا يُسْأَلُ عما وراء المرء بل أين يذهب"

حينها ضَرَبَتْ في رأسي كالصاعقة مقالة الأسود الرازي التي حفظتها عنه "لا ندري من أين أتينا، لكنا بأيدينا أين نذهب" فعلمتُ أنه لو سألني السموأل عن ما ورائي و قلت إني أريد نبش قبر ميت لسقط ماء وجهي و ما بقيت فيه مزعة.

جعلني هذا أدرك شيئًا غاب عن ذهني، في كل أمرٍ جلل عصيب، كانت تعاليم الأسود هي حبل نجاتي منها، مع كل أخوتي، مع رمال، مع كيان، مع كل اليمنيين

و العرب، كان الأسود معي و لم يفارقني مفارقة الحاجب للرمش، و أنا.....ابتغي نبش قبره.....مات الرجل قريبًا من قلب الحجاز.....أكان يريد طالع الحجاز؟ هل أدرك من هو طالع الحجاز؟ هل يعلم عن طالع الحجاز ما لا أعلمه؟

"فأين نذهب؟" سألت الرجل على استحياء.

فأجاب: "الحجاز"

قلت: "إذ ليس لنا سبيل إلا التفويض إلى طالع الحجاز، هذا رأيك؟"

"ليس تفويضًا، بل ايمان و اتباع و اعتقاد"

"ايمان؟ بالرجل الذي يسير بالرعب؟"

"يقذفه في قلوب الظالمين"

"و يقتل الناس قتل الشياه"

"يقتل اليهود و الخائنين"

"و يتسيد على العرب و العجم"

"بالعدل و السلام و رد الحقوق إلى أهلها"

"لا يصنع هذا من يريد مُلْكًا"

"و هو لا يبتغي مُلْكًا و الدنيا بين يديه"

"كأنما تذكر ملاكًا لا بشرًا"

"حتى ملائكة السماء تصلي على ذِكْر اسمه"

غرام المجنون الجنوب - حسين طلال

فاعتدلت في جلوسي و أكملت تحاورنا: "أهي من تخاطبها في جوف الليل و قبل الفجر؟"

"بل أخاطب من هو فوقها"

"و هل....يرد عليك؟"

"لقد رأى ضعفي و عرف ما في قلبي فسامحني و غفر لي"

"هل.....رأيته؟"

"لو كان يُرى لما استحق العبادة"

"و كيف تعرف أنه موجود؟"

فالتفتَ إلي و على محياه ابتسامة لم أرَ مثلها على انسان من قبل و قال بصوت جميل هادئ: "إنك تعرفه يا شهاب، قد رأيتَ آثاره، من ينجيك في ظلمات الليل و رمضاء النهار، من رعاك و رزقك حتى اشتد عودك و غدوتَ أقوى من غيرك"

فقمت مغاضبًا: "بل أنا! شهاب بن الأسود الرازي! أنا من غلبتُ أعدائي بيدي لا بيد غيري! قد غلبتُ ذامقطع الذي ظن نفسه عليماً! غلبتُ حَزَنْ الذي حسب نفسه قويًّا! غلبتُ يشجب الذي اعتقد نفسه منيعًا! غلبتُ عبدإيل الذي رأى نفسه حكيمًا! و غلبتُ كهر الذي جمع ذلك كله! فمتى كان إلهك معي؟!"

لم يتغير وجهه و هو يجيب: "قد نَعَتَّهُ إلهًا، فكيف علمتَ أنه إله؟"

"لا أعلم....."

ثم سألني: "من تراه أقوى الكائنات؟"

"لا أعلم.....الشمس؟"

"الشمس تغطيها السحاب"

"فالسحاب؟"

"السحاب تحركها الريح"

"فالريح"

"الريح لا تقدر على الجبال"

"فالجبال"

"الجبل لا يقدر على أن يُخْرِجَ فأرة من جوفه"

"فتقول فأرة؟"

"الفأرة يقتلها الدواب و الانسان"

"فتقول الانسان لأنه إجمال ذلك كله؟"

"الانسان تؤذيه الشمس في الرمضاء"

فغضبت كرةً أخرى: "أتهزأ بي؟"

قال: "لا، و لكن من ذا من المخلوقات ليس به ضعف؟"

قلت: "لا يوجد"

قال: "فيجدر أن يكون خالقًا من تصمد إليه المخلوقات، بلا ضعف، بلا فقر، بلا عجز، بلا موت، بلا نسيان، يكون معهم أينما كانوا متى ما كانوا"

قلت: "من ذا يكون مع المرء أينما كان بلا زمان و لا مكان إلا أن يكون إلهًا"

غريب مجنون الجنوب - حسين طلال

"نعم، من ينصر ذا الضعف في شدته، من يعين المحتاج في محنته، من يناديه المريض في علته، ليس إلا واحدًا لا ثاني له، هو صوت الخير في نفوس الخلائق، و عين الحقيقة في انسان الأوادم، لا يحده حد و لا يحيطه محيط، مهما بَلَغَتْ قوة الانسان، لو حِيلَ بينه و بين شربة ماء بين فِيهِ و بطنه، و بين قطر بول بين بطنه و فرجه، فلا ينجيه منها أحد إلا هذا الواحد، كذا أسفل الصخور و بين المعارك و الحروب، و في غمرات الفلك و البحور، إلا هو"

"إن كان لا يُرَى و لا يُسْمَعْ فكيف عرفتَ من هو؟"

"من تأييده لأوليائه"

"أوليائه؟ قلتَ أنه قد أيدني، فَسَلْهُ غدًا إن كان يَرَى على كل ما صَنَعْتُ في حياتي أني من أوليائه"

"أنتَ من أوليائه، من لا يرضى الظلم و يعين الضعيف هو من أوليائه، و سيزيدك من تأييده إن أَنْفَذْتَ مشيئته"

"بم يأمرك؟"

"بكل خير"

"....."

"ما بك؟"

"إن ما تقوله لا تقوله الكهنة عن آلهتها، فهذا عدم اتباعي لأي منهم"

"ربما القدر يريدك أن تسير إليه"

"أسير إليه؟ أقابله؟"

عويل الحزين الحزين - حسين طلال

"أرأيت طالع الحجاز؟ فإنه مبعوثٌ منه، يتكلم بكلمته، و ينفذ مشيئته، و يحكم بحكمه، و ينطق بحكمته و إرادته، فمن أطاع نال التأييد و النصر و السعادة، و من أعرض فثم الشقاء و الضنك"

طالع الحجاز.....أكان هذا ما عَلِمَهُ الأسود فأراده و سعى إليه؟ رَجَعَ عن الكهانة التي سمعها و أسس لها ثلاثون عامًا من عمره؟

ربما.....كان هذا هو الطريق.....ربما هذا هو السبيل الحق.....

"إن كان السبيل و الطريق هو إلى الحجاز، فلِمَ لَمْ تَسِر إليه؟"

"ما بَقِيَتْ من أيام حياتي ما يكفيني لأبلغه"

فاستحضرت في خاطري ذلك الذي في رِجْلِهِ من داء، وددتُ أن أخرج و ابتغي له طبيبًا، أن أصنع شيئًا لهذا الرجل، الذي يخاطبني كبشر.

تجرأتُ على السؤال أخيرًا: "فما.....اسمه؟" غير أنه قَطَعَ جوابه أصوات ذئابٍ تعدو على الغنم خارج البيت، فَهَمَمْتُ أن أخرج إليها فأمسك بي: "دعها، فلا حاجة لي بها، فهذه الذئاب إن أَكَلَتْ، لم تؤذيك حين تخرج لسفرك"

"أي نبيل! أليست تلك غنيماتك تأكل و تشرب منها؟!"

"لو أعلم أنك تأخذها لوهبتك إياها، و لكن ليس أَجْمَلُ من السفر الخفيف، و إني مرتحلٍ فَأَنْعِمْ من مخفف"

فجلستُ هنيهة، و أنا نظرةٌ إلى نبيل الخامل الهادئ، و نظرةٌ إلى الباب....حتى ما أطقتُ الجلوس...

انتفضت إلى أولئك الذئاب، منها مَن قتلتُ و منها مَن هرب، و مِن الغنم منها ما مات و منها ما بقي، و حرزتُ من بقي من الغنم بعيدًا عن آكليها.....

نظرتُ إلى السماء ساعة المغرب في نورها الرمادي بلا شمس و لا قمر و لا كواكب....هل لَمَّا كنتُ أنظر إلى السماء و أفتش فيها.....هل كنتُ أفتش عنه؟ هل أضعتُ وقتًا و أنا أبحث عن حفرة.....كان حري بي أن أرفع رأسي؟

"أيا نبيل، إن غنيماتك نجا منها....."

ثم.....

صمتت كل الأصوات في رأسي.....

لما رأيته على نفس جلسته مبتسمًا مطمئنًّا.....

ما فهمت.....أكان يدري؟

أكان يدري.....أنه ميتٌ الليلة؟

## 14.نجوم

لم أخشَ الموت في حياتي مطلقًا.....

لكن رؤيتي لنبيل و هو يفارق الدنيا بلا خوف و لا حُزْنٍ و لا ندم....لو أردتُ الموت....لأردته هكذا....

لعل الموت ليس يدعو للخوف.....بل الخوف هو ما يأتي بعده.....

لم يعد هناك ما يدعوني للمكوث هنا....لا في مأرب و لا عائدًا إلى عدن....

و لا في اليمن كلها.....

غريب مجنون الجنوب - حسن طلال

بل الفضيلة كل الفضيلة في ترك اليمن.....و لا يبقى في اليمن إلا شقي متبوب.....

حزمت أمري، و عقدت عزمي، و سائرٌ إلى الحجاز أمضي.

يكفي أنه قد فاتني أن أعرف اسم ذلك الاله الذي بعث طالع الحجاز.....فاتني أن أعرف اسم الذي قد يخلصني من هذه الحياة...

كم لعنت في هذه اللحظة قلة صبري و فساد بصيرتي.....

تفكرت في طريقي بما مررت به.....

لم تغنِ يشجب أمواله عن خيل الملك و لا عن الموت.....

و لا حزن و قوته.....

و لا كهر و جنوده....

و لا حكمة عبدإيل ولا صلاته...

و لا ذومقطع بشبابه و نشاطه.....

و ليس سواء من يموت جزعًا و من يموت هانئًا مطمئنًا غير نادم على شيء.....

أيامٌ مضت ارتحل شمالًا جهة الحجاز، حتى وصلتُ نجران و أتيتُ على وادٍ استشعرتُ الشر فيه قبل أن أنزله و صدق شعوري...

ما إن وطأت حافر فرسي الوادي حتى أحيط بي من جنود بدا من هيأتهم أنهم من جنود كهر، ثم رأيتهم يوسعون الطريق لقدوم رمال....

"شهاب...آخر من بقي من أبناء الأسود...لا مرحبًا بك و لا أهلاً"

قلت: "هؤلاء....أهم المدد الذين انتظرهم كهر؟"

قالت: "و هم طوع أمري و رهن إشارة من بناني"

التفت فرأيتهم ربما يزيدون على الثلاثمئة رجل، فسألتها: "و كلهم لا عقل لهم؟"

فَوَضَعَتْ سبابتها اليمنى على رقبتها، و تَكَلَّمَتْ، فخرج من فمها صوت ملك الأقيال الخشن الذي أعرفه بدلًا من صوتها: "ليست خوارق العادات حكرًا عليك و على كيان، فصوتي هذا يسلب من الرجال إرادتهم و يسلمها لي"

"سواي أنا و كيان إن اعتقدت، أسحر هو؟"

"بل عِلْم، عِلْمٌ و حق، كحق أن تقتل كيان أمامي اليوم، إن بيننا و بينه ساعةٌ على الخيل"

كنتُ قد رأيتُ ما يكفي من سفكٍ للدماء من هنا و حتى مماتي، فلم أرد أن أقتل انسانًا بعد اليوم، فتركتها و جندها يمشون بي إلى حيث كيان، و صَدَقَتْ فهناك حيث كان، يقف على صخرةٍ سوداء ملساء، فتبسم ضاحكًا لما رآنا.

"رمال؟ أضاق عليك قصرك البديع في الحوطة؟"

فقالت له: "بل تضيق الدنيا إن ما تزال فيها تحيا، في هذا اليوم تقضي، قد طال الأمر"

فأجاب: "من منا يفر من الآخر يا رمال؟ أفلا ترين أن لا شيء يسير كما تشائين؟ حتى شهاب، فارسك الذي وضعتِ فيه آمالك لن يطيعك"

"لن يقتلك شهاب لأني آمره بذلك، بل يقتلك لأنه يعلم أن هذا هو العدل، يعلم أن هذا هو الفعل القويم"

"و هل يتعلم صواب السبيل منك؟"

"مني أحكم و أعقل منك"

ثم أشارت بيدها فتدافع رهط من الجنود و أنزلوا كيان على وجهه أرضًا في منظر أصابني بالتعجب إذ كيف يترك كيان يفعلون به ما يفعلون، ثم ضَحِكَتْ رمال و قالت: "اليوم يوم المقصلة يا كيان.....شهاب، لقد أراد القدر أن يؤتيك الكنز لهذا اليوم و هذا الحين، فَشُقَّ عنقه، تُرِحْ قلبك، و تمضي في حياتك، و ترتاح اليمن من شره"

ثم وَضَعَتْ قدمها على رأسه: "أنظر أين أوصلك العُجْبُ و الفخر، تحت قدمي، و لي اليد العليا، قد كان في يَمَنِكُم بلقيس، فلما ذَهَبَتْ ذَهَبَ نوركم و ضياءكم، و وقر في قلبي إلهكم ألمقه، فابتعثني لأكون لكم كشمس العلية، خلاص اليمن.....في يدي"

ثم هَبَطَتْ على ركبتها و نَظَرَتْ إلى وجهه: "و حتى و أنتَ تُقَبِّلُ الأرض ما يزال العُجْبُ و الغرور على وجهك، لن تزيد على أنك عربي يمني مكانك في ذيل الأمم، لن يصنعوا لك تمثالًا و لن ينشدوا عنك شعرًا، لأن هذا منتهى أمانيكم أنتم العرب"

و بينما يربطه الجنود و ينزعون سلاحه، وقعت يد أحدهم على طرف الكنز الذي مع كيان، فصاح الرجل متألمًا، و استحالت كفه ترابًا، و هكذا سال بقية جسده كما يسيل الماء رملًا و ترابًا، ففزع بقية الجنود و تفرقوا عنه، و ما كان منه إلا أن قام و نزع سلاحه، فأضاءت له أعين كل من كان هناك.

"ويلٌ للخائبين"

"اقتلوه!" صاحت بهم رمال.

غير أن كيان لم يقدم على شيء سوى أن ضرب الأرض الصلداء الملساء التي تحته، فانشقت الأرض كالخسف، و سقط كل من كان هناك في جوفها....و من بينهم أنا.....

**********

ما أظن أن أحدًا نجا من ذلك الخسف، حتى فرسي الكريمة سيناء، تلك التي لم تفارقني في أعسر أموري، و لم أجد أوفى منها حيوانًا و لا انسانًا، و نَغَرَ قلبي فقدانها، و رأيتني تعلقتُ بطرفٍ من الصخور و تسلقتها صعودًا، و بينما أصعد، إذ بي أسمع حوارًا بين كيان و رمال.

حيث ابتدأها كيان: "أين إلهك ألمقه ليحفظك و يحميك؟ يضيع منك مُلْكك و رجالك، و ما زلتِ ترين نفسك على رأس اليمن و اليمنيين؟"

فردت: "و لكنكَ لستَ بإله"

فقال: "و كم ما أتيتِ من جند و رجال فليس منهم قاتلي، بل أنا من يأخذ منهم حياتهم"

"أهذا جوابك على كل شيء؟ أن تقتل؟ أهذا ما أنتم عليه؟ أهذا جل ما تفقهونه أنتم العرب و اليمنيون؟"

"هذا جوابي لكِ"

ثم سكن الصوت، إلا من صوت ريح سقيم، و لما بَلَغْتُ الحافة، لم أجد لا كيان و لا رمال، إنما كومة رمل، لعلها ما بقي من رمال، و كيان من قتلها.....

التفتُّ حولي، فرأيتُ نفسي في أنقاضٍ تشبه أنقاض قوم عاد في بناءها، تضيء الشمس على بابٍ كبيرٍ أمامي، لا يخلو فيَّ شك أن كيان خلفه...

و بينما أنظر في النقوش و الكتابة، سمعت صوت رمال: "اليوم.....تبدأ الآلام.....اليوم.....تجري المعاناة.....اقتل كيان يا شهاب"

فأجبت الصوت: "كلا.....لن أقتل أحدًا....."

فقال: "أقتل كيان تنفذ مشيئة الإله.....أقتل كيان تنجو اليمن.....أقتل كيان تهدأ نفسك.....أقتل كيان تبرد تربة أبيك"

أبي.....كم كرهت ذاك الرجل.....كم أردت أن أفت عظامه.....ثم الآن.....أجدني أسير نفس طريقه.....قد درت اليمن أريده.....فإذا هو ليس في اليمن بل في الحجاز.....و كأنه لطالما قال لي بأن أقدم الحجاز....فثم الجواب.....

فقلت: "إن من يأمر بالقتل.....و من يربط النجاة و السكينة و إكرام الموتى بها.....فليس بإله.....بل شيطان....إذهبي إلى شيطانك....فثم مكانك"

لم يعد الصوت بجواب فمضيت طريقي إلى الباب....وبينما أمشي تفكرت في أمري و فيما حدث.....

في حال اليمن.....في حال العرب.....بل في حال البشر جميعهم.....

أي بشر؟

إن وحوش الغاب هي من يأكل بعضها بعضًا كما تفعل العرب فيما بينها.....لا يعرفون معروفًا و لا ينكرون منكرًا.....لا ينصرون مظلومًا و لا يردعون ظالمًا.....مكارم الأنساب أرجى عندهم من مكارم الأخلاق.....و سقوط الدم عندهم أهون من سقوط اسم القبيلة.....

غير أن الحقيقة....أن النجاة في أن يترفع العربي و اليمني عن هذا كله...و أن يتحول إلى شيءٍ أسمى...ليس بالشيء الذي جعله يبني كل هذا البناء العظيم...بل أكبر...أكبر من السماء و الأرض....في الذي جاء بالحياة إلى الأرض.

فتحتُ الباب....فإذا خلفه صحن كبير مقعر منحوت في الصخر و الشمس تنظره من علو.....و كيان يقف هناك...

فقال لما رآني: "قد جئتَ أخيرًا، و أعجبني إصرارك و عدم تراخيك، رغم ظني أنك ستصل أبكر من الآن.....قل لي.....أَصَعُبَ عليك قَتْلُ إخوتك؟"

فأجبت: ".....أَصَعُبَ عليك إلقائي من الجرف؟"

"كلا.....إنما كنتُ معتقدًا بقدرتك، بكراهيتك، برغبتك في إنفاذ العدل"

"كَذَبْت....ليس هذا ما أردته أنت"

"من ذا يقول و يحدد ما الصدق و ما الكذب يا شهاب؟ أهو ما تراه أعيننا؟ إن ما أراه هو أثر أقوامنا التي دُفِنَتْ من آلافٍ من السنين و إن كنتُ من قبلما أراها غافلًا جاهلاً، تمدني بعلمٍ و إيمانٍ بأن عودة مجد اليمن هو في استعادة الذي مَكَّنَ من بناءها، تُرِي أن القوة في التمسك بمجد هؤلاء البناة.....كإنسان، لن أرى هذا، و لمن تُرْفَعُ عن عينيه الغشاوة، فلا يصعب عليه أمر، و لمن يصر على الغشاوة و العمى، فلا مكان له في مملكة اليمن العظمى القادمة، تأتي القوة لمن يتمسك بما تركه له أجداده العظماء و يتمهد له الطريق إلى الحكم و العظمة، كما تحس الآن بين يديك، و لهذا، تركتُ أبناء أخي يقتلون بعضهم دون ندم"

"تنطق فصاحةً كما يقال، لكن ليست هذه الفصاحة إلا تبريرًا لكل جرمك و آثامك"

"كما تنطق هذه الجدران حكمة لمن يفتح بصيرته لها، و في تهورك لما تسعى إليه، فاتك أن تنال منها، هذا هو القدر الذي ينتظرنا، أن يعود مجد اليمن على يدينا، يؤدي كل منا ما أراده له القدر، و لا قول و لا إرادة لنا فيه، هو ما كُتِبَ لنا"

"تسعة آلاف عام هو وقتٌ يكفي لتعرف أن خلاص اليمن ليس فيما تقول، بل في أمرٍ لا تفعله العرب و لا من شيمها، كل ما تقوله إنما أضغاث أحلام لو أريد لمن سبقك أن يأتي بها ليُسِّرَ له بها"

"و إن تكن أضغاث أحلام؟ أليس أمر طالع الحجاز أضغاث أحلام؟ كل انسان يسير خلف الحلم الذي يعجبه، فما الضير فيما أفعله أنا؟ كلنا سواء، ملوك لليمن، أم عبيد لبني عدنان في الحجاز، ما الفرق؟ جميعنا يريد جزيرة العرب لنفسه"

"لن أؤمن لك و لكلامك السقيم، إن طالع الحجاز يأمر الناس بما يقيم لهم حياتهم، مخلصٌ أتى ليرشد الناس إلى نجاتهم، ليخلصهم مما نفعل نحن العرب ببعضنا البعض، قد تفتحت بصيرتي للحقيقة يا كيان، لا يهم أمر مجد اليمن بل حياة و سلام اليمنيين بيد من يأخذ بيد المظلومين و يعينهم لا بيد من يدق عنق من لا يأتمر بأمره"

"ربما تكون سمعتَ كلامًا أعجبك و لكن ما أدراك أنه حقيقة؟ أوتظن أن العدنانيين يريدون لنا خيرًا؟ أنصارًا على الظالمين؟ لا تجعل خفة العقل و الرأي تعتريك، لا فرق بيننا و بينهم"

"إنما أراك في ضلالك القديم يا كيان، هل تأمر الناس بنفس ما يأمر به طالع الحجاز؟ ما الذي تريده؟"

"ما يريده كل يمني قحطاني، أن يمشي مرفوع الرأس، و إنك.....على وشك أن تمشي بلا رأس"

قفز كيان للوراء و استل سيف كنزه من جعبته، و كذلك فعلت، حانت ساعة الحسم بيني و بين كيان....

الشمس من فوقنا، و كنزي بيدي و كنزه بيده، كأنما ثلاثة شموس، اثنتان منها كلما اندقتا خرج صوتٌ كهزيم الرعد يهز المكان، و علا صوت نزالنا و التقاء سيوفنا موقظًا الموتى و مفزعًا الجن و الدواب.

و هذه المرة، رأيتني على قدمٍ و ساق مع قوة كيان، بل صارت قوتي تساوي قوته، و رأيتُ العَرَق يتصبب من جبينه على عروقه لأول مرة، و رأيتُ وجهه ضاحكًا مبتسمًا كأنما انتظر هذا و أراده.

ثم لما افترقنا سألني: "بعدما تقتلني يا شهاب؟ أين تبني مملكتك؟ صنعاء؟ عدن؟ حضرموت؟"

فقلت: "كيان، إني لا أريد أيًّ من هذا، إن شئت منحتك الكنز و مضيت حال سبيلي و كفينا شر هذا القتال"

"ليس ذلك إليك، فإما أن نبني مُلْكنا معًا أو أحدنا، و إلا...فالموت ينتظر من يسير إلى الحجاز...و إن أَرَدْتَ الصدق يابن أخي، فإني لأرجو أن تكون معي و لا يقتل بعضنا البعض"

"لِمَ؟ أهذا هو الوجه الثالث للزمكة؟ أن نبني مُلْكًا على دماء الأبرياء؟"

"إن الزمكة لم تقع على الأرض بعد و ما زال الأمر بيدنا، أتريد العيش حرًّا أم ذليلًا؟"

"بل لم يكن للزمكة إلا الوجهان، أحدهما حق و الآخر باطل، و ليس لنا أن نقول أيهما أي، و أنت لا ترى إلا رأيك و ليذهب من خالفك إلى الهلاك"

"بل للزمكة وجهان لأن القدماء قد سطروا أن من يحمل الكنزين هو كالشمس و القمر، و الليل و النهار، و النجم و الكوكب لليمن يعود ضوؤها"

"ألم تقل أن لا ملكين في ذات المملكة؟"

"و لهذا...فإما أن تقتلني...و أما أن يكون أحدنا مَلِكًا و الآخر أميرًا"

"مهما تكلمتَ يا كيان إلا ازددتُ يقينًا، أنه لو كان لليمن نجاة، فلن تكون بطريقتك، و أنتَ أجبن و أعند من أن ترى الحق"

".....لم أرد قتلك يابن أخي...و لكنك استحببتَ الذل على الكرامة و رضيتها لك و لأبناء أرضك....أما إنه لا حاجة لي بك بعد اليوم"

و عدنا لقتالنا، الذي بَدَأَتْ بعده الأرض تزلزل كما صار و نحن عند ذي مقطع، و بَدَأَتْ الصخور تتهاوى حولنا، كأنما الدنيا بذاتها تتهاوى، و الحياة تلفظ أنفاسها الأخيرة...

قوة كيان التي عهدتها من قتالنا الماضي، قد صرت الآن أملكها، امتلأ قلبي قوة لم تكن فيه من قبل، رأيتُ نفسي في حينها أقوى من كل أخوتي مجتمعين و من كيان...

و حينما كاد يهبط بسيفه على رأسي ظنًّا منه أنه قد ظفر بي، رأيتُ كأن الزمان قد حُبِسَ لي، وتباطأ كل شيء حولي، و رأيتُ مفتاح فوزي على كيان أمامي....فتركتُ سيفي من يدي...و أحكمتُ قبضتي و ضربتُ بها يمناه...فسقط سيفه من يده...

"شهاب!"

فأخذتُ سيفه قبل أن يمس الأرض "ويل للخائبين" أسمعته الكلمة التي يقولها، قبل أغرس السيف في قلبه...

و سقط كيان.....

"لا ندري من أين أتينا، لكنا بأيدينا أين نذهب.....فانظر يا كيان....هل تراني بعد الموت؟ هذه ديتك عن كل من قَتَلْتُ"

و رأيته يلتوي، و جحظت عيناه، كأنما روحه تنزع نزعًا، تألم كثيرًا، كأن أرواح كل من قَتَلَهُم ظلمًا و عدوانًا قد تعلقوا برقبته، حتى سكن أخيرًا....كومةٌ من الرمال....يموت بلا قبرٍ و لا شاهد، و لا عزاء و لا نائحة....

ثم التفتُّ فرأيتُ أن كلا سيفي الكنز قد انكسرا، كأن القدر قد شاء نهايتهما مع نهاية كيان و أمره كله، مع نهاية الأسود الرازي و كل بنيه، نهاية هذا النسل الذي لم يُقَدَّرْ له أن يرى نور الغد...

طرف سيف الكنز....قد أصاب طرفًا من بناني....

و الآن....

ينتثر منه الرمل كساعةٍ توشك على النهاية....

تسلقتُ البناء حتى خرجتُ من الحفرة و أكملتُ طريقي تلقاء الحجاز.....

**********

مر اليوم....و الليلة.....

و أنا أنقص قليلًا قليلًا.....

و رغم إحساسي بالتعب و السقم، إلا أن الطمأنينة لم تفارق قلبي....

لا خوف.....لا حزن.....لا تعب.....لا كدر.....لا هم.....لا غم.....

كل الدنيا لم تعد تهمني.....

مر اليوم.....و الليلة....

لم تعد لي يدٌ يمنى...

نثرتها الريح في أرجاء اليمن...

مجرين مجرين الجنوب - حسن طلال

تساءلت إن كانت قد حَمَلَتْها إلى الساحل في عدن.....

ثم....

لم أقوى على السير...فتمددتُ على ظهري...و طالعتُ النجوم بعدما جَنَّ الليل.

رأيتُ كثرتها....تفكرتُ في صنعها....

تساءلتُ إن كان إله السموأل فوقها.....يسمعني....و يراني....

فرفعتُ يدي الأخرى....كأنما أريد أن أمسك إحدى تلك النجوم....

تكلمتُ بصوتٍ خفيفٍ هادئٍ تعب هو ما قدرت عليه:

"أيها الإله....إن كانت هذه النجوم صَنْعَتُكْ....و هذه الجبال والسهول و البحار.....فَحَرِّيٌّ بك أن تسمع صوتي....و ترى حالتي.....فلعلي أبلغ الحجاز و لا أبلغها....فإن لم أبلغها بجسدي....فاجعل روحي تصلها....و انثر جسدي على اليمن كلها...."

أغمضتُ عيني...داعبني نسيم عليلٌ جميل...تَفَتَّحَتْ أنفاسي لهواءٍ باردٍ مريح...

أحسستُ بإحساسٍ لا يفوقه وصفٌ في السكينة و الطمأنينة و الراحة....

كأن يدًا شافية مَسَحَتْ على وجهي المشوه....

كأنها مَسَحَتْ على قلبي فَأَطْفَأَتْ حريقه....

كأني لم أعد غريبًا....

كأني رأيت.....

كأني.....

.....

غريس الجنوب - حسين طلال

كان كيان رجلًا ذا مهابة....

تنشد القبائل عنه شِعراً و قصصًا عن جبروته...

قلةٌ ترى أنه ليس بانسان....و قلة تعرف أمره و ما وراءه

غير أن تلك الأشعار و القصص ما منعتني أن أسعى خلف مبتغاي...

أنا شهاب....أول أبناء الأسود الرازي

تسعة آلافٍ سنين بعد هلاك عاد إرم.....بضع و ثمانون عاماً من زوال سبأ و يمنت....أكثر من

ستين سنة مضت منذ موت صاحب الفيل...عشرون من الأعوام قضت منذ مولدي

كنت.....و لا أحد مثلي.....

أتيتُ من نسلٍ تفاخر بأمجاده منذ آلاف السنين، بَنى مصانع و قصوراً نالت من الغيم في السماوات

و قهر سكانها أهل الأرض...

ذلك ما أنبأني به كيان و أراده لي...بل و أعاد ما فعله الأسود بي و أذاقني من العذاب ما أذاقني

الرجل الذي أتيتُ من صلبه....قد أقسمتُ على أن أنبش قبره

أقسمتُ على نبش قبر أبي.....

## غريب مجنون الجنوب (رواية تاريخية)

## تأليف: حسين طلال

تواصل مع الكاتب مع صفحته
فى موقع فيسبوك أو على رقمه
فى تطبيق الواتساب